مصطلح التجريد

دراسة فى التاريخ والمفهوم البلاغى

دكتور

نزيه عبد الحميد فراج

جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية بالقاهرة

دار الفتح للإعلام العربى

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

إن دراسة مصطلح فن بلاغي دراسة تاريخية ، ترصد هذا المصطلح في مظانه وتستقى الآراء فيه من منابعها الأولى ، وتربط بين تلك الآراء التي قيلت فيه ربطا يظهر تطورها التاريخي ، ويحدد معنى المصطلح ا لذي استقر عليه المتأخرون، هي من الأهمية بمكان، والبلاغة العربية في حاجة ماسة إلى هذا النوع من الدراسة، التي تقدم الفن البلاغي خلال العصور المختلفة، وترصد التطور التاريخي لهذا المصطلح منذ مولده إلى أن استوى عوده، وأصبح فنا بلاغيا له كل مقومات الفن البلاغي.

وهذا النوع من الدراسة الذي قل اهتمام أهل العلم به يرينا أيضا نشأة الفن البلاغي وتطوره خلال القرون، وارتباط مصطلح هذاالفن بالمتقدمين من اللغويين والنحاة كالخليل بن أحمد وسيبويه وأبي عبيدة والفراء والأصمعي، ومن جاء بعدهم كالمبرد وأبي علي الفارسي وأبي الفتح عثمان بن جنى وغيرهم.

كما أن دراسة المصطلح من حيث تطور مفهومه البلاغي توقفنا على تاريخ أخذ المصطلح معناه العلمي الدقيق، ومن الذي وضع حده وصاغ تعريفه، وقبل كل ذلك تدلنا هذه الدراسة وترشدنا على أول من أطلق على هذا الفن البلاغي موضع الدراسة ذلك المصطلح الذي عرف به فيما بعد، ومن أولئك الذين عنوا واهتموا بدراسة هذا الفن ، وأفسحوا له مكانا في مصنفاتهم بين الفنون الأخرى.

* * *

ومصطلح التجريد ـ موضوع هذه الدراسة ـ ولد ونشأ على أيدي اللغويين والنحاة، فقد ظهر هذا المصطلح أول ما ظهر في صورة مثال لمسألة نحوية ذكرها سيبويه في « كتابه » ، نظر فيه من جاء بعده وهو محمد بن يزيد المبرد فكانت تلك الإشارة إلى هذا الفن التى تكررت في موضعين من « الكامل » ، وقف عليها

بعد ذلك أبـو على الفارسي الـذي عنى بهـذا الفن من القـول ، وأكثر الحديث عن « التجريد » فى غير كتاب من كتبه ، ثم جاء تلميذه الذكي الفطن ابن جنى ، فأفاد مما قاله أستاذه فى هذا الفن ، فأطلق عليه هذا المصطلح ، ثم أفرد له بابا خاصا به فى كتابه « الخصائص » ، ودرس فى هذا الباب كثيرا من صوره ، وذكر معناه ، وحلل كـثيـرا من شـواهده التى ذكـرها له ، وتناول كـثيـرا مما يتعلق بهـذا الفن ، أفـادت البلاغيين الذين تناولوه بعده بالبحث والدرس .

ولم يعرف البلاغيون فن التجريد ، ولم يرد له ذكر فى كتبهم ، إلا فى القن الخـامس الهـجـري على يد عـبـدالقـاهر الجـرجـانى ، ولكن بعد أن قـارب النضج والكمـال ، ولم يضـيـفـوا على مـاقـاله فـيه أبو على الفـارسي وابن جنى إلا بعض الصـور ، وصيـاغـة التـعريف الذى يميز هذا المصطلح عن غـيـره من المصطلحـات البـلاغيـة . وبذلك يتبين لنا أن دور اللغويين والنحاة فى نشأة مصطلح التجريد لا يقل عن دور البلاغيين فى تطوره ونموه عبر القرون الممتدة إلى يومنا هذا .

* * *

إن هـذه الـدراسـة ـ « مـصطلـح التـجريـد : دراسـة فى التـاريخ والمفـهـوم البـلاغى » ـ قد تتبعت « مصطلح التجريد » منذ ظهوره . ، ورصـدت ما حـدث له من تطور عـبر قـرون عـدة تمتد من القرن الثانى إلى ا لقرن الثانى عشر الهـجرى ، ووقفت على جهود من نشأ وتطور هذا الفن على أيديهم ، وعلى من كان له الفضل فى نموه ورقيه ، كـما أنها وقفت أيضا على ما أضافه إلى هذا الفن من تعرض لبحثه من أهل العلم لغويين ونحويين وبلاغيين ، وأشارت إلى أول من أدخل فن التجريد فى « علم البديع » وعده مجرد محسن بديعى معنوى .

وبجانب هذه الدراسة التاريخية لمصطلح التجريد ومفهومه البلاغى ، فإن البحث قد اشتمل أيضا على دراسة نقدية ، ومناقشات لبعض البلاغيين فيما قالوه فى بحثهم لهذا الفن البلاغى .

وبعد . . فإن أكن قد وفقت فى هذه الدراسة فهذا من فضل الله سبحانه وتعالى ﴿ **يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ ، وإن تكن الأخرى فحسبى أني اجتهدت ، « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

نزيه عبد الحميد السيد فراج

مكة المكرمة : فى شهر جمادى الآخرة ١٤١٧هـ

الموافق شهر أكتوبر ١٩٩٦م

الفصل الأول

مصطلح التجريـــد

في

بحوث اللغويين والنحاة

ولد مصطلح التجريد ونشأ ونما وترعرع وأشرف على الكمال فى بيئة النحويين واللغويين قبل أن يقف عليه البلاغيون فى القرن الخامس الهجرى .

فالنحويون واللغويون هم الذين اكتشفوا هذا الفن من الكلام ووضعوا أيديهم عليه ، وأطلقوا عليه هذا الاسم ، وأشاروا إلى أكثر صوره ، ولم يضف البلاغيون على ما قالوه إلا معناه الاصطلاحى وبعض صوره ، وزيادة توضيح وبيان منهم لفائدته البلاغية .

* * *

فمن المعرف أن عبد الله بن معتز (٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ) قد ألف كتابه « البديع » سنة أربع وسبعين ومائتين للهجرة (٢٧٤ هـ) ، وقد نص على ذلك صراحة فى قوله : وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد ، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين[١] .

وقد أشار ـ رحمه الله ـ إلى أن محاسن الكلام والشعر كثيرة ، لا ينبغى للعالم أن يَدَّعِىَ الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره[٢] . وقد ذكر من تلكَ المحاسن ثلاث عشرة لونا ، تضاف إلى الألوان الخمسة التى أطلق عليها اسم البديع ، فيصير ما تضمنه كتابه من فنون البديع ثمانى عشرة فنا .

وقد كان فن التجريد أحد فنون البديع التي لم يعرض لها ابن المعتز ، لا فى القسم الأول وهو « البديع » ولا فى القسم الثانى وهو « محاسن الكلام » . . ولا نستطيع مع هذا أن نحكم على كتابه بعدم الاستقصاء لتلك المحاسن ، ولا عليه هو بالتقصير لأنه لم يقف على جميع ألوان البديع ومحاسن الكلام .

وإذا كان ابن المعتز قد خلا كتابه « البديع » ـ الذى يعد أول كتاب صنف فى البلاغة والبديع ـ من الإشارة إلىَ هذا الفن وهو « التجريد » ، فهل يعنى هذا أن

---

(١) البديع ص ٥٨ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

الإشارة إلى ذلك الفن البلاغى كانت متأخرة عنه ولم يكن قبله من أهل العلم من أشار إليه ؟

الحقيقة : أن الإشارة إلى مصطلح التجريد كانت متقدمة على ابن المعتز ، ولكنه لم يتنبه لها أو لم يقف عليها . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن يعد أول من أشار إلى هذا المصطلح قبل ابن المعتز ؟

الجواب : هو سيبويه .

التجريد عند سيبويه (١٨٠ هـ) [١] :

كان سيبويه من أفقه الناس لأسرار اللغة العربية ، كما أنه من النحاة الأوائل الذين شافهوا الأعراب وأخذوا عنهم . ويعده أحد الدارسين المحدثين واضع علمى المعانى والبيان [٢] .

وقد أفاد عبد القاهر الجرجانى ـ وغيره من البلاغيين ـ كثيرا من حديث سيبويه فى كتابه عن أسرار التراكيب ، إذ أنه قد أشار خلال حديثه عنها إلى كثير من صور الفنون البلاغية .

وإذا رجعنا إلى كتاب « دلائل الإعجاز » للجرجانى فإننا نجده قد أشار إلى سيبويه باسم « صاحب الكتاب » فى عدة مواضع من الكتاب المذكور . فقد أشار إلى ما قاله فى التقديم والتأخير من أنهم يقدمون الذى بيانه أهم وهم بشأنه أعنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم [٣] . وكذلك أفاد الجرجانى مما قاله سيبويه فى باب « ما يكون فيه الاسم مبنيا على الفعل قدم أو أخر ، وما يكون فيه الفعل مبنيا على الاسم » [٤] .

وحديث سيبويه عن « الحذف » كان مستفيضا ، فقد تناوله فى أكثر من باب ، وقد أفاد عبد القاهر من الذى قاله فى تلك الأبواب ، وذكر أبياتا في الحذف فى صدر حديثه عنه ، قد ذكرها سيبويه [٥] . وغير ذلك مما قد يطول الحديث عنه ،

---

(١) هناك اختلاف فى سنة وفاته رحمه الله تعالي ، فقيل : سنة ١٦١ ، أو ١٨٠ ، أ١٨٨ ، أو ١٩٤ . ينظر نزهة الألباء للأنبارى ص ٥٤ ، ومعجم الأدباء لياقوت جـ ٥ ص ٢١٢٢ .

(٢) ينظر تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للشيخ أحمد مصطفى المراغى ص ٤٣ .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز ص ١٠٧ ، والكتاب جـ ١ ص ١٤ ، ١٥ .

(٤) الدلائل ص ١٣١ ، والكتاب جـ ١ ص ٤١ .

(٥) الدلائل ص ١٤٦ ، والكتاب جـ ١ ص ١٤٢ .

وباب المجاز العقلى الذى يعد من أنفس وأبدع ما سطره عبد القاهر فى « دلائل الإعجاز » أقامه الجرجانى وأسسه على إشارات ذكرها سيبويه فى بعض أمثلة وشواهد لأبواب من مؤلفه الخالد « الكتاب » .

* * *

ويعد سيبويه أول من أشار إلى مصطلح « التجريد » ، وكان ذلك فى صورة مثال لأحد الأبواب فحسب ، أتبعه بشرح وبيان يسير ، ولكنه كاف فى الدلالة عى أنه يرى أنه من « التجريد » الذى كان أسلوبا قديما من أساليب العرب منذ العصر الجاهلى ، وتخريج سيبويه للمثال وتفسيره له ، إنما كان تخريجا وتفسيرا له على التجريد البلاغى المعروف ففى « باب ما يختار فيه الرفع ويكون فيه الوجه فى جميع اللغات » قال سيبويه : (ولو قال : « أما أبوك فلك أب » لكان على قوله : فلك به أب ، أو : فيه أب . وإنما يريد بقوله : « فيه أب » مجرى الأب على سعة الكلام . وليس إلى النصب ههنا سبيل)[1] .

قال ابن جنى فى مبحث « التجريد » : « وقد تستعمل الباء هنا فتقول : لقيت به الأسدَ ، وجاورت به البحرَ ، أى لقيت بلقائى إياه الأسد .

ومنه مسئلة الكتاب : أما أبوك فلك أب ، أى لك منه أو به أو بمكانه أب[2] .

وكلام ابن جنى هذا يدل على أنه يرى أن التجريد فى مسألة الكتاب يحتمل أن يكون بالحرف « من » أو بالباء .

وإلى ذلك ذهب أيضا القاسم السجلماسي حيث قال : وهو يرد فى الأسلوب إما بحرف « من » كما تقدم فى المثال السابق[3] . وإما « بالباء »

---

(١) الكتاب جـ ١ ، ص ٣٩٠ .

(٢) الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٥ .

(٣) وهو : لئن لقيت زيدا لتلقين منه الأسدَ ، ولئن سألته لتسألن منه البحرَ » .

كقولك : « لتلقين به الأسدَ ، ولتسألن به البحرَ » ومسألة الكتاب . « أما أبوك فلك أب» تحتمل الوجهين أي « لك منه أو به بمكانه أب »[1] .

كلام سيبويه المتقدم ذكره كان بمثابة البذرة الأولى التى غرسها فى تربة خصبة ، فأنبتت هذا الفن البلاغى ، ثم جاء بعده بعض النحويين واللغويين الأذكياء ، فتعهدوا هذه النبتة الطيبة بالسقى والرعاية حتى آتت أكلها الشهى ، وتفرعت أغصانها ، وأصبحت دوحة عظيمة ، لها ثمر طيب وظل ظليل .

والفضل للغارس للبذرة الأولى ، ثم لمن رعى هذا الغرس بعده حتى أثمر وأظل بأوراقه وأغصانه .

---

(١)ينظر المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع ص ٢٧٩ .

الأعلم يفسر كلام سيبويه على التجريد :

كلام ابن جنى على مثال سيبويه كان على تقدير « من » أو « الباء » التجريديتين ، وكذلك من تابعه فى كلامه وهو السجلماسى ، ولم ينظرا إلى عبارة سيبويه وهى « أو : فيه أب » ، فسيبويه يرى أن المثال على تقدير « الباء » أو « فى » وابن جنى والسجلماسى ذهبا إلى أنه على تقدير « من » أو « الباء » مع أن سيبويه قد نص على هذين الحرفين وهما « الباء » و « فى » .

والأعلم الشنتمري [1] صاحب كتاب « النكت فى تفسير كتاب سيبويه » نظر إلى أن التجريد فى المثال بالحرف « فى » وكان كلامه فى شرح كلام سيبويه منصبا على قوله : « وإنما يريد بقوله : « فيه أب » : مجرى الأب على سعة الكلام » .

قال رحمه الله : ما بعد « الفاء » خبر عن الأب ، والعائد عليه مضمر ، والتقدير : أما أبوك فلك فيه أب ، أى : لك فى ابتنائك إليه ، وتحققك به أب من الآباء ونصيب صالح . هذا معناه وجرى اللفظ على الاتساع ، وجعل الأب كالظرف لنفسه وإن لم يصح ذلك فيه وإنما هو اتساع لفظ ، والمعنى على ما ذكرت لك .

ومثله قولهم : « لك فى هذه الدار دار صالحة » ، و « لك في هذا الرجل رجل صدق » وأهل الكوفة لا يجيزون هذا حتى يخالف لفظُ الآخر لفظ الأول فيقال : « لك فى هذه الدار منزلٌ صالح » و « لك فى هذا الرجل صاحبٌ صدقٌ » ، ويحتجون بقول الله عز وجل : ﴿ **ذلك جزاءُ أعداء الله النارُ لهم فيها دارُ الخلد** ﴾[2] ، فدار الخلد ليست من لفظ النَار وإن كانت إياها فى المعنى ، والأمران

---

(١) هو : أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمرى ، ولد سنة عشر وأربع مائة فى مدينة شنتمرية الغرب ، وتوفى رحمه الله سنة ست وسبعين وأربع مائة (٤٧٦هـ) .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٢٨ .

عند أهل البصرة سواء ، وليس في الآية ما يوجب امتناع غيرها مما اتفق فيه اللفظان ، لأن المعنى واحد ، والاتساع فى الاتفاق والاختلاف سواء فاعلم [1].

* * *

هذا شرح وتفسير من الأعلم لمثال سيبويه وما قاله فيه ، على التجريد ، وإن لم يذكر لفظ « التجريد » . فقوله . « والتقدير : فلك فيه أب » يريد به أنه من التجريد الذى يكون بالحرف « فى » الظرفية . والأمثلة الأربع التى ذكرها بعد ذلك وهى : « لك فى هذه الدار دار صالحة » و « لك فى هذا الرجل صاحب صدق » و « لك في هذه الدار منزل صالح » و « لك في هذا الرجل رجل صدق » كلها من أمثلة التجريد الاصطلاحى ، وتدخل فى قسم من أقسامه المشهورة ، وهذا القسم هو ما كان التجريد فيه حاصلا بفى الظرفية الداخلة على المنتزع منه ، وقد وصف البلاغيون هذا القسم وماشابهه مما لم يكن التجريد فيه مبنيا على التشبيه بقولهم : « أن ينتزع من الشيء شيء آخر مساو له فى صفاته للمبالغة فى ذلك الشيء ، حتى صار بحيث ينتزع منه شيء آخر مساو له فى صفاته » ، ومثلوا له بالآية الكريمة التي مثل بها له الأعلم وهى قوله تعالى ﴿ **لهم فيها دار الخلد** ﴾[2]

أما المثال الخامس وهو الآية الكريمة فهو من أشهر شواهد التجريد لهذا القسم الذى ذكرناه ، وقد مثل بها البلاغيون والمفسرون والنحويون واللغويين للتجريد الاصطلاحي ، وأكثر الكتب التي تتعرض لمبحث التجريد تذكر فيها هذه الآية شاهدة له .

وقد فسرها الزمخشرى بعد الأعلم على التجريد ، قال رحمه الله : فإن قلت : ما معنى قوله تعالى : ﴿ **لهم فيها دار الخلدد** ﴾ ؟ قلت : معناه أن النار في نفسها دارالخلد ، كقوله تعالى[3] ﴿ **لقد كان لكم فى رسولِ الله أُسوةٌ**

---

(١) النكت فى تفسير كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٢) ينظر شروح التلخيص جـ ٣ ص ٢٩٤ ، وشرح عقود الجمان جـ ٢ ص ١١١ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

حسنةٌ ﴾ [1] والمعنى : أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، وتقول : « لك فى هذه الدار دار السرور » ، وأنت تعني الدار بعينها [2] .

ولم يذكر الزمخشرى مصطلح التجريد فى تفسيره لآيتي الأحزاب وفصلت ، وإن كان ذكره فى مواضع آخر ، ولكن الشهاب الخفاجى فى تعليقه على كلام البيضاوى فيهما صرح بذكر كلمة « التجريد » .

قال البيضاوى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) : خصلة حسنة من حقها أن يؤتى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد ، أو هو فى نفسه قدوة يحسن التأسى به ، كقولك : « فى البيضة عشرون مَنًّا حديدا » أى هى فى نفسها هذا القدر من الحديد .

قال الشهاب : وقوله : (أو هو فى نفسه الخ) فهو على هذا تجريد كلقيت منه أسدا ، والتجريد كما يكون بمعنى « من » يكون بمعنى « فى » كقوله :

* وفى الله إن لم يعدلوا حكم عدل *

ومعناه : أن ينتزع من ذى صفة آخر مثله فيها مبالغة في الاتصاف . وكذا المثال الذى ذكره [3] .

وفى آية فصلت يقول البيضاوى : (لهم فيها) فى النار (دار الخلد) فإنها دار إقامتهم وهو كقولك : « فى هذه الدار دار سرور » وتعنى بالدار عينها ، على أن المقصود هو الصفة .

ويعلق الشهاب على هذا الكلام قائلا : وقوله : (وهو كقولك فى هذه الدار الخ) يعنى أنه من « لتجريد » وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة آخر مثله مبالغة فيها

---

(١) ينظر الكشاف جـ ٣ ، ص ٥٣١ .

(٢) الكشاف جـ ٤ ، ص ١٩٨ .

(٣) حاشية الشهاب جـ ٧ ، ص ١٦٦ .

كما مر تحقيقه ، لأنها نفسها دارالخلد ، وجعله للظرفية الحقيقية تكلف لا داعى له مع أن المذكور أبلغ .

وقوله : (على أن المقصود الصفة) أشار بالعلاوة إلى جواب آخر لتصحيح الظرف ، لأنه إذا قصدت الصفة وذكرت الدار توطئة ، كان كأنه قيل : لهم فيها الخلود[1] .

وقول الشهاب : « وجعله للظرفية الحقيقية تكلف لا داعى له » يشير به إلى ما قيل من أن الكلام على ظاهره والظرفية حقيقية ، والمراد أن لهم فى النار المشتملة على الدركات دار مخصوصة هم فيها خالدون[2] . والأول لا شك أنه أبلغ كما قال .

وإلى ذلك ذهب البلاغيون ، وقد اكتفى الخطيب بالتمثيل لما يكون من التجريد بالحرف « فى » بهذه الآية ، قال : « ومنها نحو قوله تعالى : ﴿ **لهم فيها دار الخلد** ﴾ فإن جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ هى دارالخلد ، لكن انُتزع منها مثلها ، وجعل معدا فيها للكفار ، تهويلاً لأمرها[3] .

* * *

ويريد الأعلم بقوله : « وجرى اللفظ على الاتساع ، وجعل الأب كالظرف لنفسه وإن لم يصح ذلك فيه وإنما هو اتساع لفظ » أن الحرف « فى » للظرفية المجازية كما فى قوله تعالى : ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ [4] ، وأن القصد من الكلام المبالغة ، فلذلك جعل الأب في « أما أبوك فلك أب » كالظرف لنفسه ، والشيء لا يصح أن يكون ظرفا لنفسه إلا على سبيل المجاز والمبالغة .

---

(١) المصدرالسابق جـ٧ ، ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

(٢) روح المعاني جـ٢٤ ، ص ١١٩ .

(٣) الإيضاح جـ٢ ، ص ٥١٢ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٧٩ .

والظرفية المجازية والمبالغة التى تفيدها تلك الظرفية ، هو ما قصده سيبويه والأعلم بكلمة « الاتساع » ، وإلا لو لم يقصد ذلك لقيل : « أما أبوك فلك منه ، أو به ، أو مكانه أب » .

والآيـة التى مثل بها الأعلم لتلك الظرفية المجازية التى أفادت المبالغة نجد قوله : (فيها دار الخلد) ظاهره يقتضى أن تكون « دار الخلد » غير النار ، وليس الأمر كذلك ، بل النار هى نفس دار الخلد ، وأجيب عن ذلك : بأنه قد يُجعل الشيءُ ظرفا لنفسه باعتبار متعلَّقه على سبيل المبالغة ، كأن ذلك المتعلَّق صار مستقرا له ، وهو أبلغ من نسبة المتعلق إليه على سبيل الإخبار به عنه ، ومثله قول أبى الخطار الكلبى :

أفاءتْ بنو مروانَ أمسِ دماءَنا وفى الله إن لم يُنْصفوا حكَمٌ عدلُ[1]

وكان من وجوه تفضيل البلاغيين لقوله تعالى ﴿ **ولكم فى القصاص حيـاة** ﴾ على القول المأثور عن العرب فى نفس هذا المعنى وهو « القتل أنفى للقتل » التعبير بالظرفية المجازية المفيدة للمبالغة ، قال الخطيب : « وثامنها جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة ، بإدخال « فى » عليه »[2] .

بعد كل هذا الكلام من الأعلم الشنتمرى وقبله سيبويه يصح لنا أن نقول : إن الأعلم قد خطا بهذا الفن البلاغى خطوات واسعة إلى الأمام ، ولو أنه أطلق كلمة « التجريد » على مثال سيبويه والأمثلة الشبيهة به ، لكان كلامه السابق ذكره بحثا بلاغيا فى صميم « التجريد » ولكن يكفه أن دلنا على أن سيبويه بمثاله هذا وما قاله فى بيانه وتفسيره يعد أول من أشار إلى « مصطلح التجريد » ، وأن هذا الفن البلاغى قد خرج من كتابه .

---

(١) ينظر الدر المصون جـ٩ ، ص ٥٢٤ . والبيت فى الخصائص جـ٢ ، ص ٤٧٥ ، والمحتسب جـ١ ، ص ٤٢ . وفي مصادر أخرى سيأتى الكلام عنها .

(٢) الإيضاح جـ١ ، ص ٢٨٨ .

التجريد عند أبي العباس المبّرد :

كان المبّرد [1] من أعلم الناس بكتَاب سيبويه ، وكان يقول لمن أراد أن يقرأ عليه « الكتاب » : أركبتَ البحرَ ؟ تعظيما واستصعابا . ولا أستبعد أن يكون المبرد قد وقف على مثال سيبويه المتقدم ذكره ، وأدرك ما فى هذا المثال من بلاغة ، ووضع يده على هذا الأسلوب العربي وهو المسمى « التجريد » وعلى تلك الطريقة من طرق التعبير ، فلما مر عليه من الشعر ما يماثله ويجرى فى طريقته فسر هذا الشعر ووجهه توجيها بلاغيا لا يخرج عن فن التجريد الاصطلاحي ، وإن كان لم يذكر كلمة « التجريد » .

ففي كتابه « الكامل » ذكر شعرا للقتَّال الكلابي وهو :

أنا ابن أسماءَ أعمامى لهـا وأبى ... إذا ترامى بنـو الإمـوان بالعـارِ

لا أرضع الدهرَ إلا ثدى واضحـة ... لواضـح الخدِّ يحمـى حـوزة الجـارِ

ياليتنـي ــ والمنى ليست بنافعـة ــ ... لمالـكِ أو لحصـين أو لسيَّـارِ

طوالُ أنضية الأعنـاقِ لم يجـدوا ... ريحَ الإ مـاء إذا راحـت بأزفـارِ

ثم أخذ فى تفسير هذا الشعر ، فكان مما قاله فى البيت الثاني :

« يقول : إنما ترضعني أمي ، وليست غير كريمة ، كما قال الأعشى :

يا خيرَ من يركب المطىَّ ولا ... يشرب كأساً بكفّ من بخلا

يقول : إنك تشرب بكفك ، ولست ببخيل »[2] .

---

(١) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى المعروف بالمبرد ، شيخ أهل النحو والعربية ، صاحب كتابى « الكامل » في اللغة والأدب ، و « المقتضب » فى النحو ، ولد رحمه الله سنة ٢١٦ ، وقليل : ٢١٠ ، وتوفى سنة ٢٨٥ هـ .

ينظر نزهة الألباء ص ١٦٤ ، ومعجم الأدباء جـ ٥ ص ٢٦٧٨ .

(٢) الكامل جـ ١ ، ص ٧٧ .

وهذا تفسير من المبرد لكلام الشاعرين في بيتيهما على التجريد والكناية معا .

فالقتال الكلابى يريد أنْ يقول : إنه يرضع ثدى أمه ، وهى ليست غير كريمة ، فقد انتزع من أمه أما أخرى واضحة النسب كريمة غير لئيمة يرضع من ثديها على سبيل الكناية ، لأنه إذا نفى عن نفسه الرضاعة من ثدى من ليست واضحة النسب ولا كريمة ، فقد أثبت لنفسه الرضاعة من ثدى كريمة واضحة النسب على سبيل الكناية .

وكذلك الأعشى فإنه يريد بقوله : « ولا يشرب كأسا بكف من بخلا » أنه يشرب الكأس بكف الجواد ، فقد انتزع الشاعر من المخاطب ـ وهو الممدوح ـ جوادا يشرب الممدوح بكفه على سبيل الكناية [1] ، لأنه إذا نفى عنه الشرب بكف البخيل فقد أثبت له الشرب بكف الكريم ، ومن البين أنه يشرب غالبا بكف نفسه فهو إذا ذلك الكريم .

وقد أشار المبرد إلى التجريد والكناية فى بيت الأعشى بهذه العبارة الموجزة وهى : « إنما تشرب بكفك ، ولست ببخيل » .

وقد مثل الإمام عبد القاهر ببيت الأعشى للتجريد الذى ليس مبنيا على التشبيه [2] .

أما من جاء بعده من البلاغيين فقد مثلوا به لقسم من أقسام التجريد وهو ما يكون على طريق الكناية [3] .

ويفسر المبرد كلمة « بأزفار » فى البيت الأخير وهو :

---

(١) حيث أطلق اسم الملزوم الذى هو نفى الشرب بكف البخيل على اللازم وهو الشرب بكف الكريم يعنى نفسه . ينظر المطول ص ٤٣٣ .

(٢) ينظر أسرار البلاغة ص ٣٣٥ .

(٣) الإيضاح جـ ٢ ، ص ٥١٣ .

طوالُ أنضية الأعناق لم يجدوا ريحَ الإماءِ إذا راحت بأزفار

فيقول : « وقوله : (بأزفار) فالزِّفْرُ : الحمْل ويضرب مثلا للرجل ، فيقال : إنه لزُفَر : أى حَمّال للأثقال . ويقال : أتى حِمْله فازدفره ، قال أبو قحافة أعشى باهلة [1] :

أخور غائبَ يُعطيها ويُسألها يأبى الظُّلامَةَ منه النّوْفَلُ الزُّفَرُ

وإنما يريده بعينه ، كقولك : « لئن لقيتَ فلانا ليلقينَّك منه الأسدُ » .

وقوله : النوفل ، من قولهم : إنه لذو فضل ونوافَل »[2] .

والمبرد فى تفسيره لقول أعشى باهلة : « يأبى الظلامة منه النوفل الزفر » يقترب أكثر من كلامه السابق من التجريد الاصطلاحى ـ وقد وجه البيت على التجريد البلاغى نفسه ، فقوله : « وإنما يريده بعينه » أى لا يريد الشاعر بالنوفل الزفر شخصا آخر غير المرثى موصوفا بهاتين الصفتين بل يريد أخاه الذى يرثيه والمعنى بقوله : « أخو رغائب » . فهو النوفل الزفر ، فقد انتزع الشاعر من أخيه المرثى شخصاً آخر يأبى الظلامة كما يأباها ، موصوفا بهذين الوصفين « النوفل الزفر » والتجريد فى البيت كان بواسطة « من » الداخلة على المنتزع منه ونكتة التجريد هى المبالغة فى وصف المرثى بإباء الظلامة[3] ، حتى صح أن ينتزع منه شخصا آخر له هذه الصفة .

والتنظير من المبرد لبيت أعشى باهلة بقولهم : « لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد » يدل على أنه يعنى بما قاله فى بيت أعشى باهلة التجريد لا غيره ، لأن هذا المثال النثرى نص فى التجريد الاصطلاحى ، وقد مثل به البلاغيون للتجريد

---

(١) من قصيدة تعد من عيون المراثى ، يرثى بها أخاه لأمه : المنتشر بن وهب .

(٢) الكامل جـ ١ ، ص ٨٠ .

(٣) الظُّلامة : هو ما تطلبه عند الظالم ، وهو اسم ما أخذ منك .

بالحرف « من » الداخلة على المنتزع منه ، والمتضمن للتشبيه ، وهو أبلغ صور التجريد ، وستأتى كلمة عبد القاهر التى أشاد فيها بهذه الصورة .

وقد استشهد عبد القاهر ببيت أعشى باهلة على التجريد غير المتضمن للتشبيه ، كما استشهد بالمثال النثرى على التجريد المبنى على التشبيه[1] . والمتأمل فى تعليق المبرد على البيتين والمثال النثرى يستشف منه معنى التجريد الذى عرفه علماء البديع فيما بعد ، وأن هذا هو التجريد بعينه ، وإن كان ـ رحمه الله ـ لم يسمه بهذا الاسم . ويتبين لنا إذا وقفنا على ما قاله أبو على الفارسي وابن جنى والجرجاني أنهم قد نظروا إلى كلام المبرد على التجريد وتأثروا به فى حديثهم عنه ، وهذا الأمر يظهر جليا لمن يقف على كلام هؤلاء الأئمة ، ويقارنه بكلام المبرد .

---

(١) ينظر أسرار البلاغة ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

التجريد عند أبى على الفارسى :

مضى ما يقرب من قرن من الزمان بعد محمد بن يزيد المبرد ، ولم نر لأحد من العلماء نحويين أو بلاغيين كلاما فى فن « التجريد » ، ولم يشر إليه أحد منهم مع ما أشار إليه من أنواع البديع . فهذا قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) الذى يعد ثانى اثنين أسهما في إقامة صرح الديع الأول ، فقد عاصر ابن المعتز ، وإن تأخر به الزمان قليلا ، لم نره قد أشار إلي فن التجريد مع ما أشار إليه من فنون أخرى ذكرها فى كتابه « نقد الشعر » .

فقد عرض رحمه الله عشرين لونا من ألوان البديع ، اشتمل عليها كتابه المذكور ، لم نجد التجريد واحدا من تلك الأنواع التى عرض لها مع أن معاصره المبرد كانت إشارته إليه واضحة ، ليست بحاجة إلا لمن يلتفت إليها ، ثم يضع لها ذلك المصطلح الذى عرف به فيما بعد ، ويضع له مفهومه البلاغى الذى يميزه عن الفنون البلاغية الأخرى .

* * *

ذكر ابن جنى فى مقدمة « الخصائص » أن أبا على الفارسى ـ رحمه الله ـ كان بالتجريد غريا معنيا ، ولم يفرد له بابا ، لكنه وسمه فى بع ألفاظه بهذه السمة[1] . أي كان شديد العناية والاهتمام بفن التجريد ، كثير البحث عن أسراره ولطائفه ، وهذا من إمام كبير من أئمة النحو واللغة والقراءات شهادة لهذا الفن البلاغى بقيمته البلاغية العالية ، ومنزلته الرفيعة بين الفنون الأخرى .

وكلام أبى على الفارسى[2] . عن التجريد منثور فى كتابيه « الشعر » و « الحجة فى علل القراءات السبع » وفى كتابى تلميذه ابن جنى « الخصائص» و « المحتسب » حيث إنه ـ كما قال ابن جنى ـ لم يفرد له بابا .

(١) الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٢) هو أبو على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسى النحوى ، كان من أكابر أئمة النحويين ، ولد سنة ٢٨٨ ، وتوفى رحمه الله سنة ٣٧٧ هـ . ينظر نزهة الألباء ص ٢٣٢ ، وأبو على الفارسى للدكتور عبد الفتاح شلبى .

وسنبدأ بما ذكره أبو على فى هذين الكتابين عن « فن التجريد » ، ثم فيما قاله تلميذه ابن جنى سواء كان ناقلا له عن أستاذه أبى على ، أو منفردا به .

قال أبو على فى « كتاب الشعر » أو « شرح الأبيات المشكلة الإعراب » : « باب مما يختلف فيه معنى حرف المضارعة مع اتفاق اللفظ » .

قال الأعشى :

فآليت لا أرثى لها من كلالة ولا من حَفىً حتى تُلاقى محمداَ

يجوز أن تكون « التاء» فى « تُلاقى» من فعل الغيبة ، وفى الفعل ضمير الغائبة ، كما تقول : « هند تلاقى زيدا » وأسكن الياء فى موضع النصب ، نحو :

*** يا دارَ هند عفتْ إلاَّ أثافيها ***

ويجوز أن تكون التاء لاحقة فعل المخاطب بعد الغيبة ، كقوله سبحانه : (إياك نعبد) بعد الغيبة ، وتكون الياء للضمير ، والنون محذوفة [1] .

ويجوز أن تكون « التاء » للمخاطب ، والمعنى : حتى ألاقيَ ، إلا أنه نزل نفسه منزلة المخاطب ، كما قال :

*** وهل تُطيق وداعا أيها الرجلُ ***

وكقوله :

أرمى بها البَيْدا إذا هَجَّرَتْ وأنتَ بين القرو والعاصر

وإنما يعنى بذلك نفسه ، وعلى هذا قراءة من قرأ[2] : ﴿ **قال اعْلَمْ أن الله على كل شيء قدير**) [3] .

---

(١) هذا هو الالتفات عند البلاغيين ، من الغيبة فى (الحمد لله رب العالمين . .) إلى الخطاب فى (إياك نعبد وإياك نستعين) ، وفى البيت من الغيبة فى « لها » إلى الخطاب فى « تلاقى محمدا » أي : أنت .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٩ .

(٣) كتاب الشعر جـ ١ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

ما قاله أبو على فى الفعل المضارع « تلاقى » فى الوجه الثالث ، وهو أن تكون « التاء » للمخاطب ، والمعنى : « حتى أُلاقى » هو التجريد بعينه ، فقد جرد الشاعر من ذاته شخصا آخر ثم خاطبه . ويدل على هذا قول أبى على : « إلا أنه نزل نفسه منزلة المخاطب » ، ويؤكد هذا تنظيره بقول الأعشي :

* وهل تطيق وداعا أيها الرجل *

وقد استشهد البلاغيون ببيت الأعشى الذى ذكر أبوعلى عجزه ، على أحد أقسام التجريد وهو ما يكون بمخاطبة الإنسان نفسه ، وذلك بأن ينتزع المتكلم من ذاته شخصا آخر مثله فى الصفة التى سيق لها الكلام ثم يخاطبه ، كقول أبى الطيب المتنبى :

لا خيلَ عندكَ تُهديها ولا مالُ فليسعد النطقُ إن لم يُسعد الحالُ

كذلك الشاعر الآخر فى قوله : « وأنتَ بين القو والعاصر »[1] لايخاطب بقوله : « وأنت » شخصا آخر ، وإنما يعنى بذلك ـ كما قال أبو على ـ نفسه . وسيأتى كلامه عن هذه القراء للآية الكريمة فى كتاب « الحجة فى علل القراءات السبع » .

فهذه صورة من صور التجريد يعد أبو على الفارسى أول من أشار إليها وتكلم عنها ، ومثل لها بأمثلة هى نفس الأمثلة التى مثل بها البلاغيون بعده ، ولم يضف من تحدث بعده عن هذه الصورة شيئا ، اللهم إلا الشرح والتوضيح ، وإن كان كلام أبى على عنها في غاية الوضوح والبيان .

* * *

وفي « باب من حذف المضافَ . . قال أبو على : وأنشد أبو زيد :

---

(١) القرو : مسيل المعصرة ونحوه .

أقسمتُ أُشكيكِ من أيْنٍ ومن نَصَبٍ
حتى ترىْ معشراً بالعَمِّ أزْوالا[1]

أي : تجيء بمجيئه هيف ، وكذلك قوله بعد

* فلا محالة أن تلقى بهم *

أى : تلقى بلقائهم رجلا من شأنه .

وقد يجوز فى قوله : « حتى ترىْ معشرا بالعمِّ » أى : حتى ترى العَمَّ كقوله[2] .

جازتِ القومَ إلى أرحلنا آخرَ الليل بيعَفُورٍ خَدِرْ

وكقوله[3] :

بنزوةِ لصٍّ بعدما مرَّ مُصعبٌ بأشعثَ لا يُفلى ولا هو يَقْمَلُ[4]

جاء أبو على ببيتي طرفة والأخطل شاهدين على التجريد وهو ما كان بدخول باء المعية على المنتزع لا على المنتزع منه . وهو قسم من أقسام التجريد مثل له البلاغيون بقول الشاعر :

وشوهاءَ تعدو بي إلى صارخ الوغى
بمُستلئمٍ مثلِ الفنيق المُرَحَّلِ

وقد أراد طرفة باليعفور الخدر المحدَّث عنها ، فهى نفسها عنده اليعفور الخدر ، لا شيئا آخر غيرها ، فقد جرد وانتزع من نفسها شخصا آخر عبر

(١) البيت مع بيتين بعده فى « النوادر » ، وقد نسب أبو زيد البيت إلى رجل من طيء ، يقال له : الوَدَك ، جاهلى ، يخاطب ناقته . النوادر ص ٦٥ . والعم : اسم موضع ، والأزوال : الظرفاء ، واحدهم زول ، والأنثى زولة .

(٢) هو طرفة ، والبيت فى الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٥ ، والمحتَسب جـ ١ ، ص ٤٢ .

(٣) هو الأخطل ، وهو برواية أبى على فى الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٥ ، والمحتسب جـ ١ ص ٤١ .

(٤) كتاب الشعر جـ ٢ ، ص ٣٧٤ ، ٢٧٥ ، .

عنه بقولـه : « بيعفـور خدر » ، وسيأتـى كـلام لابن جنى عـن هـذا البيت فـى « الخصائـص » و « المحتسب » .

وبيت الأخطل جاء به أبو على ومن بعده من النحاة شاهدا على التجريد وهو أن « مصعبا » ـ وهو مصعب بن الزبير ـ نفسه هو الأشعث ، وعلى هذا أنشده أبو على مرة أخرى فى هذاالكتاب ، وكذلك ابن جنى ، ويؤيد هذا إعراب العينى له ، حيث قال : « قوله : بأشعث فى محل الرفع ، لأنه بدل من قوله مصعب ، بدل اشتمال » . ثم قال : « الاستشهاد فيه : فى قوله « مصعبٌ بأشعث » فإن فيه شاهدا على التجريد ، وذلك لأن الأشعث هو نفس المصعب » . وأول من فسر البيت على التجريد ـ وأن مصعبا هو الأشعث : ابن قتيبة فى موضعين من « المعانى الكبير »[1] [2] .

وسيأتى هذاالبيت مرة أخرى عند الحديث عن التجريد فى « المحتسب » . وقد استشهد به للتجريد من البلاغيين بدر الدين بن مالك . وسيأتى ما قاله عن هذاالبيت عند حديثنا عن التجريد عند بدر الدين بن مالك وبكلام أبى على عن هذه الصورة من التجريد يكون قد تكلم عن صورتين من صوره أو قسمين من أقسامه السبعة التى عرفت له بعد ذلك فى كتب البلاغيين ، ويكون أبو على أول من أشار إلى هاتين الصورتين .

* * *

وفى « بـاب يجمع ضروبا من هذا البـاب » أي من باب الفاعل ، قال أبو على : أنشد محمد بن السرى لنصيب [3] .

---

(١) ينظر المعانى الكبير جـ ١ ، ص ٥١٠ ، و جـ ٢ ص ٩١٨ .

(٢) هامش ص ٣٧٥ من جـ ٢ من كتاب الشّعر .

(٣) هو أبو بكر محمدبن السرى المعروف بابن السراج ، وهو أحد شيوخ أبى على الفارسى ، توفى رحمه الله سنة ٣١٦ هـ .

وقالوا عهدناه وفى كل ليلة يُحلُّ به من طالب العُرْف راكبُ

يحتمل قوله : « من طالب العرف » أمرين ، أحدهما : أن يكون أر الجمع ، فحذف الياء لالتقاء السَّاكنين[1] ، مثل : (محلِّى الصيد)[2] ، ويكو « الراكب » بعض الجملة ، كما تقول : يحل به من المعتفين ناس ، والمعنى : فريق راكب ، أو قبيل راكب .

والآخر : أن يكون الراكب هو الطالب ، كما تقول : « تلقى من زيا الأسد » ، و « تلقى بعمرو شجاعا وعالما » .

و : يأبى الظُّلامةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ

ويكون « طالب العرف » اسم الجنس ، فلا يكون واحدا ، ولكن كما أنشد أبو زيد ، من قول الراجز[3] .

إن تبخلى يا جُمْلُ أو تعتلِّى أوتصبحى فى الظاعن المُولِّى

وكما تقول : نعم الرجلُ ، ونعم غلامُ الرجل ، وفى التنزيل : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾[4] . ويكون أفرد « راكبا » لما كان الأول فى المعنى ، وإن كان المراد به الكثرة ، لأن الأول أيضا على لفظ الواحد ، وقد جاء المفرد فى الإيجاب ، يراد به الكثرة ، قال :

فقتلا بتقتيل وضربا بضربكم جزاء العطاس لا ينام من الثأر

ومثل كون الراكب ، الطالبَ فى المعنى ، قول أبى ذؤيب ، يصف سيلا :

فمرَّ بالطير منه فاعِمٌ كَدِرٌ فيه الظباء وفيه العُصْمُ أجناحُ

---

(١) وهي رواية الديوان :

* يطيف به من طالبى العرف راكب *

(٢) سورة المائدة ، الآية ١ هامش ص ٤٨٣ من كتاب الشعر .

(٣) هو منظور بن مرثد الأسدى ، والشطران من أرجوزة له فى النوادر ص ٥٣ .

(٤) بعض الآية ٣٤ من سورة إبراهيم ، وبعض الآية ١٨ من سورة النحل .

« مر منه » يريد : من السيَل ، والمعنى : مرهو ، كقوله :

بنزوة لص بعد ما مر مصعب بأشعث لا يُفْلى ولا هو يَقْمَلُ

وهو الأشعث »[1] .

* * *

قول أبي على : « والآخر : أن يكون الراكب هو الطالب » هذا هو التجريد بمن الداخلة على المنتزع منه ، فقد انتزع الشاعر من طالب العرف راكبا ، وهو الراكب بعينه ، وهو قسم من أقسام التجريد مثل له البلاغيون بقولهم : « لي من فلان صديق حميم » .

والمثال الأول من المثالين اللذين ذكرهما وهو « تلقى من زيد الأسد » فهو مثال لقسم من أقسام التجريد وهو ما يكون التجريد فيه مبنيا على التشبيه .

والمثال الثانى وهو « وتلقى بعمرو شجاعا وعالما » مثال لقسم آخر من أقسام التجريد وهو ما كان بالباء الداخلة على المنتزع منه من غير قصد إلى التشبيه .

وهذا القسم لم يشر إليه غير أبى على ، يضاف إلى القسمين السابقين ، وبذلك يكون قد أشار إلى ثلاث صور من صور التجريد ، أما التجريد المبنى على التشبيه ، وما كان بمن التجريدية الداخلة على المنتزع منه ، فقد سبق أبو على بكلام المبرد عنهما .

وقول أبى على : « ويكون طالب العرف اسم الجنس ، فلا يكون واحدا » يشير به إلى أن « من » فى بيت نصيب وأعشي باهلة « يأبى الظلامة منه النوفل الزفر » للجنس النفسى ، كقولك : بللت منه بشجاع . وهو التجريد الذى أشرت إليه[2] .

---

(١) كتاب الشعر جـ ٢ ، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٦ .

(٢) ينظر كتاب الشعر هامش ص ٤٨٤ جـ ٢ .

وقد سبق كلام المبرد على بيت أعشي باهلة ، وكيف أنه فسره ع التجريد ، وسيأتى كلام للإمام عبدالقاهر على هذا البيت ، أى على بيت أع باهلة .

* * *

وفى كتابه « الحجة فى علل القراءات السبع » فسر قراءة قوله تعالى (قال اعلم أن الله على كل شيء قدير) ـ وهو ما سبق أن أشار إليها فى الموضع الأول كتاب الشعر ـ على التجريد .

قال رحمه الله : اختلف فى قطع الألف ووصلها وضم الميم وإسكانها قوله عز وجل : (قال اعلم أن الله على كل شيء قدير) فقرأ ابن كثير ونافع و عمرو وعاصم وابن عامر : (قال : أعلم أن الله) مقطوعة الألف مضمومة الميم

وقرأ حمزة والكسائي : (قال اعلم أن الله) موصولة الألف ، ساكنة الميم

قال أبو على : أما من قرأه على لفظ الخبر ، فإنه [1] لما شاهد ما شاهد إحياء الله وبعثه إياه بعد وفاته أخبر عما تبينه وتيقنه مما لم يكن تبينه هذا التبين الذى لا يجوز أن يعترض عليه فيه إشكال ، ولا تخطر على باله شبهة ولا ارتياب فقال : (أعلم أن الله على كل شيء قدير) أي : أعلم هذا الضرب من العلم الذ لم أكن علمته قبل .

ومن قال (اعلم) على لفظ الأمر فالمعنى يئول إلى الخبر ، وذاك أنه لما تبين تبين من الوجه الذى ليس لشبهة عليه منه طريق نزل نفسه منزلة غيره ، فخاطبه كما يخاطب سواها ، فقال : (اعلم أن الله على كل شيء قدير) .

---

(١) أى المارّ فى قوله : (أو كالذى مر على قرية . .) الآية . وهو عزير أو الخضر . ينظر الكشاف الانتصاف لابن المنير جـ ١ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

وهذا مما تفعله العرب ، ينزل أحدهم نفسه منزلة الأجنبي ، فيخاطبها كما يخاطبه ، قال :

تذكر من أنَّى ومن أين شربه يؤامر نفسيه كذي الهجمة الأَبِلْ

فجعل عزمه على وردوه الشرب لجهد العطش ، وعلى تركه الورود مرة لخوف الرامى ، و ترصد القانص ، نفسين له ، ومن ذلك قول الأعشي :

أرمى بها البيدا إذا هجرت وأنت بين القرو والعاصر [1]

فقال : أنت وهو يريد نفسه ، فنزل نفسه منزلة من سواه فى مخاطبته لها مخاطبة الأجنبي ، ومثل ذلك قوله :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

فقال : ودع ، فخاطب نفس كما يخاطب غيره ، ولم يقل : لأودع ، وعلى هذا قال : أيها الرجل ، وهو يعنى نفسه ، وقال :

* ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا [2] *

فكذلك قوله لنفسه : (اعْلَمْ أن الله على كل شيى قدير) نزله منزلة الأجنبى المنفصل منه لتنبهه على ما تبين له مما كان أشكل عليه .

قال أبوالحسن : « وهو أجود فى المعنى » [3] .

---

(١) سبق الكلام عن هذا البيت فى الموضع الأول من مواضع التجريد فى كتاب الشعر .

(٢) عجزه :

* وبت كما بات السليم مسهدا *

والبيت مطلع قصيدة مدح الأعشى بها رسول الله ﷺ ومنها البيت الذى سبق الكلام عنه وهو « فآليت لا أرثى لها من كلالة » .

(٣) الحجة جـ ٢ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، وينظر جـ ١ ص ١٣٨ .

كلام أبى على هذا على قراءة حمزة والكسائى وتخريجها وتوجيهها على التجريد من الوضوح بمكان ، كما أن كلامه هنا على هذه الصورة من صور التجريا أوضح من كلامه عنها في الموضع الأول من « كتاب الشعر » ، وهذا الشعر الكثير الذي استشهد به أبو على لهذه الصورة من التجريد وما قاله فى تحليلها يدل على أن أبا على على دراية ومعرفة واسعة بتلك الطريقة من طرق التعبير ، وانظر إلى قوله « وهذا مما تفعله العرب ، ينزل أحدهم نفسه منزلة الأجنبي ، فيخاطبها كما يخاطبه » يريد : أن هذه القراءة على التجريد ليست ببدع ولا هي بشيء غريب ، بل لها ما يقويهاويعضدها من الشعر الفصيح .

وقد أشار بقوله : « ومن قال : (اعْلَمْ) على لفظ الأمر فالمعنى يئول إلى الخبر » إلى أن الأمر على هذه القراءة قد خرج عن حقيقته إلى : التبكيت والتوبيخ ، فالمار لا يأمر نفسه على جهة الحقيقة بل يريد توبيخها وتبكيتها حيث لم تتبين هذه الحقيقة وهى « أن الله على كل شيء قدير » قبل أن تقول ما قالت . وإطناب أبى على فى الحديث عن هذه القراءة وتويجهها توجيها بلاغيا لا يخرج عن التجريد ، يدل على أنه يرجحها على قراءة الجمهور ، لا لشيء إلا لاشتمالها على هذا الفن البلاغى الذى يستجيده ويستحسنه ، وهو التجريد .

ويدل على ذلك أيضا قوله في آخر كلامه : « قال أبو الحسن ـ أى أبو الحسن الأخفش ـ وهو أجود فى المعنى » .

وقد صدق أبو الحسن فإن هذه القراءة أجود معنى من قراءة العامة ، لاشتمالها على ذلك الفن الجميل وهو التجريد ، المتضمن نكتة بلاغية هى : التبكيت والتوبيخ من المار لنفسه ، فالمار على القرية يريد بقوله : واعْلَمْ بصيغة الأمر توبيخ نفسه ولومها على أن لم تتبين « أن الله على كل شيء قدير » قبل أن تقول : (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) فأخذ يوبخها على عدم وقوفها على هذه

الحقيقة التي ما كان ينبغي أن تخفى عليها ، لأنها من الظهور بمكان . وما قاله أبو على في هذه القراءة يدل على أنه على قدر كبير من الطبع والحس والذوق ، وإلا لما استجاد واستحسن تلك القراءة .

* * *

ويبقى بعد هذا الإشارة إلى أن أبا على خلال حديثه عن تلك النصوص الكثيرة التى فسرها وخرجها على التجريد في « كتاب الشعر » و « الحجة » لم يطلق على هذا الفن البلاغى مصطلح « التجريد » ، ولم يسمه بهذا الاسم .

وكذلك صنع فى كتابه « البغداديات » ، فقد قال فى توجيه هذه القراءة : « لم يرد تنبيه غيره وإعلامه ، وإنما أراد أن يعلم هو نفسه ما خطر له حِساً وعِيانا ، لأن المشاهدة ليس وراءها في الإبانة منزلة »[1] .

وسيأتى مزيد كلام عن هذه الآية عند الحديث عن التجريد في «المحتسب» .

---

(١) البغداديات ص ٤٢٩ ، وينظر الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٤ .

ابن جنى يفرد التجريد بباب خاص به :

يعد الإمام الجليل أبو الفتح عثمان بن جنى[1] أول من عقد لهذا الفن بابا خاصا به ، ويعد أيضا أول من أطلق على هذا اللون من الكلام مصطلح التجريد ، ولم يعرف هذا الاسم قبله ، ولم يجربه قلم أحد من المصنفين في النحو واللغة والبلاغة قبله .

وأبو على الفارسى وإن كان قد عالج أبوابا من المعانى ، يشترك فى درسها علماء النحو والبلاغة ، مثل القلب والتجريد والالتفات ، كما عرض لمسائل من التضمين ، والخصوص والعموم ، والقصر والاختصاص ، وذلك فى « كتاب الشعر » وعقد للقلب بابا دعاه (باب مما قلب الكلام فيه عن الحد الذى ينبغى أن يكون عليه)[2] فإنه لم يفرد للتجريد بابا خاصا به ، بل جاء هو والالتفات وسواهما فى ثنايا الأبواب[3] . وسيأتى نص كلام ابن جنى على ذلك .

أما ابن جنى فإنه هو الذى سمى هذا الأسلوب « التجريد » وأطلق عليه هذا المصطلح .

* * *

بدأ ابن جنى حديثه عن التجريد بكلام يدل على مدى ما لهذا اللون من الكلام من منزلة عنده ، وما يفيد أنه من البلاغة والحسن بمكان ، ثم ثنى بذكر اهتمام الإمام الكبير أبى على الفارسى به وشغفه وولوعه بهذا الفن الطريف .

---

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ا للغوى النحوى ، كان من حذاق أهل الأدب ، وأعلمهم بعلم النحو والتصريف واللغة ، صنف في هذه العلوم كتبا أبدع فيها كالخصائص ، والمنصف ، وسر صناعة الإعراب ، والمحتسب، وغير ذلك ، توفى رحمه الله سنة ٣٩٢هـ. ينظر نزهة الألباء ص ٢٤٤ ، ومقدمة الخصائص جـ ١ ص ٩ .

(٢) ينظر كتاب الشعر جـ ١ ، ص ١٠٥ .

(٣) مقدمة المحقق لكتاب الشعر جـ ١ ، ص ٥٢

قال : اعلم أن هذا فصل من فصول العربية طريف حسن . ورأيت أبا على ـ رحمه الله ـ به غريا معنيا ، ولم يفرد له بابا ، لكنه وسمه في بعض ألفاظه بهذه السمة ، فاستقريتها منه وأنقت لها [1] .

لا يريد ابن جنى بقوله : « لكنه وسمه في بعض ألفاظه بهذه السمة » أن أبا على قد أطلق على هذا النوع من الكلام اسم التجريد ، وإن كانت العبارة موهمة ذلك ، ولكن قد سبق أن وقفنا على ما قاله أبو على في هذا الفن في « كتاب الشعر » و « الحجة » ، و « البغداديات » فلم نر أنه قد ذكر لفظ « التجريد » إطلاقا ، وإن كان يعنى هذا الفن فى كل النصوص التي عرضناها في مواضع ثلاثة من « كتاب الشعر » وموضع واحد من كتاب « الحجة » ، ففى هذه المواضع الأربعة كان يفسر النصوص ويوجهها على ا لتجريد ولكنه لم يطلق عليه هذا الاسم .

وإنما يريد ابن جنى بهذه العبارة وصف أبى على هذا الفن بالطرافة والحسن ، وأنه كان يستجيده ويستحسنه ، ولذلك أعقب كلامه السابق بقوله : « فاستقريتها منه وأنقت لها » أي تتبعت ما يقوله فى هذا الفن ، وذاك اللون من الكلام الذى كان به غريا معنيا ، وكان يصفه بالطرافة والحسن ، وذلك لمعرفة أحوالها وخواصها ، فراعنى حسنها وأعجبني .

ولو أن أبا على هو الذي أطلق على هذا الفن اسم التجريد وسماه به ، لكان ذكر اسم التجريد فى المواضع التى فسر بعض النصوص وخرجها عليه ، ولكننا لم نره ذكر هذا الاسم فى موضع واحد من كتابيه « الشعر » و « الحجة » وهما من أواخر الكتب التى ألفها ، والأخير كان آخر كتبه تصنيفا . وسيأتي لهذه المسألة مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

---

(١) الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٣ .

معنى التجريد عند ابن جنى :

لم يذكر ابن جنى للتجريد تعريفا لغويا ولا اصطلاحيا ، وإنما الذى ذكر معناه اللغوى ابن الأثير فى « المثل السائر » وسنذكر ما قاله في هذا المعنى ، وكذلك التعريف الاصطلاحي للتجريد ذكره البلاغيون بعد ابن جنى حيث عرفوه بقولهم : « أن ينتزع من أمر موصوف بصفة أمر آخر مثله في تلك الصفة للمبالغة في كمال تلك الصفة في ذلك الأمر المنتزع منه » .

وإنما المعنى الذي ذكره ابن جنى للالتفات هو عبارة عن جواب لسؤال هو : كيف ينتزع المتكلم بأسلوب التجريد من نفسه شخصا آخر ثم يخاطبه ، أوينتزع من غيره شخصا آخر أو شيئا آخر ، له مثل تلك الصفة التي له أو لهذا الغير ؟

وهو معنى فلسفي كما ترى ، لم يشر إليه أحد قبله .

قال رحمه الله : « ومعناه : أن العرب قد تعتقد أن في الشيء من نفسه معنى آخر كأنه حقيقته ومحصوله . وقد يجرى ذلك إلى ألفاظها لما عقدت عليه معانيها . وذلك نحو قولهم : « لئن لقيت فلانا لتلقين منه الأسد » و « لئن سألته لتسألن به البحر » . فظاهر هذا أن فيه من نفسه أسدا وبحرا ، وهو عينه هو الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه وممتازا منه .

وعلى هذا يخاطب الإنسان منهم نفسه ، حتى كأنها تقابله أوتخاطبه . ومنه قول الأعشى :

* وهل تطيق وداعا أيها الرجل »[1] *

---

(١) صدره :

* ودع هريرة إن الركب مرتحل *

وهو مطلع معلقته .

وهو الرجل نفسه لا غيره . وعيه قراءة من قرأ : (قال اعْلَمْ أن الله على كل شيء قدير) أي اعم أيها الإنسان ، وهو نفسه الإنسان ، وقال تعالى : (لهم فيهادار الخلد) وهي نفسها دار الخلد[1] .

وقد زاد هذا المعنى وضوحا في اخر مبحث التجريد حيث قال : « وقد دعا تردد هذا الموضوع على الأسماع ، ومحادثته الأفهام ، أن ذهب قوم إلى أن الإنسان هو معنى ملتبس بهذا الهيكل الذى يراه ، ملاق له ، وهذا الظاهر مماس لذلك الباطن ، كل جزء منه منطو عليه ومحيط به »[2] .

ويشير ابن جنى بقوله : « أن ذهب قوم » إلى الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه الذى يعزى إليه هذا القول فى الروح ، وهو فى الحقيقة لأتباعه . وفى جوهرة التوحيد :

ولا تخض فى الروح إذا ما وردا نص من الشارع لكن وجدا

لمالك هو صورة كالجسد فحسبك النص بهذا السند[3]

إذا ابن جنى لم يكن يقصد بقوله : « ومعناه أن العرب » الخ ، تعريف التجريد تعريفا اصطلاحيا ، وإنما قصد بيان معنى الانتزاع والتجريد فى هذا الفن ، ولذلك لم يكن مصيبا من عرف التجريد بهذا المعنى الذى ذكره ابن جنى له ، كالإمام الزركشى فى « البرهان » وسيأتى ذكر ما عرف به التجريد .

---

(١) الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

(٢) الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٦ .

(٣) هامش ص ٤٧٦ ، جـ ٢ من الخصائص .

صور التجريد عند ابن جنى :

أشار ابن جنى إلى صور أربع من صور التجريد التى عرفت فيما بعد عند البلاغيين ، وكان ذلك فى صورة أمثلة لا غير .

إحداها : أن يقصد تشبيه الشيء بغيره ، أيْ التجريد المبنى على التشبيه والمتضمن له ، وتكون هذه الصورة بمن التجريدية الداخلة على المنتزع منه ، وقد تأتى بالباء التجريدية .

وقد مثل لهذه الصورة بمثالين التجريد فيهما بمن . وهما : « لئن لقيت فلانا لتلقين منه الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر » .

فقد بالغ المتكلم فى اتصاف فلان هذا بالشجاعة حتى انتزع منه أسدا تشبيها له به فيما جعل وجه الشبه ، وهذا الانتزاع للتخييل أن شجاعته قد بلغت غاية يمكن أن ينتزع منه الأسد الذي هو الغاية فى ذلك ، فانتزع من ذات المشبه نفس المشبه به .

كما أنه بالغ فى المثال الثاني في اتصافه بالسماحة ـ إن كان المراد بالسؤال رفع الحاجة ـ أو بالعلم ـ إن كان المراد به رفع الجهل ـ حتى انتزع منه بحرا ، تشبيها له به فيما جعل وجه الشبه . وهذا الانتزاع أيضا للتخييل أن كرمه أو علمه بلغ غاية يمكن أن ينتزع منه البحر الذي هو الغاية فى ذلك ، فانتزع من ذات المشبه نفس المشبه به كأنه هو .

وقد ذكر ابن جنى بعد ذلك أن هذه الصورة من صور التجريد قد يكون التجريد فيها بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه أيضا .

قال : « وقد تستعمل « الباء » هنا فتقول : « لقيت به الأسد ، وجاورت به البحر » : أي لقيت بلقائي إياه الأسد »[1] .

---

(١) الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٥ .

وهذه الصورة التي صدر ابن جنى كلامه عن صور التجريد بها ، هى أبلغ صورة كلها ، لأنها تضمنت التشبيه مع التجريد ، فصار الأسلوب جامعا لفنين : التجريد والتشبيه .

وقول ابن جنى : « وقد تستعمل الباء » كلام له دلالته ، فهو يفيد أن التجريد يكون بواسطة حرف إما « من » أو « الباء » أو « في » وهذا هو غالب صور التجريد ، وقد يكون بدون حرف ، كما هو في مخاطبة الإنسان نفسه ، ولم يشر إلى الحرف الذى به يكون التجريد ولا إلى نوع هذا الحرف ، أحد ممن تعرض لمبحث التجريد قبله .

وهذا يدل أيضا على أنه كان على معرفة كاملة بكل أحوال هذا الفن .

والثانية : ما تكون بغير حرف ولا قصد تشبيه ، وهذا هو القسم الثاني للتجريد عند البلاغيين ، المسمى بمخاطبة ا لإنسان نفسه ، وهو أن يخاطب الإنسان نفسه بعد تجريدها عن ذاته كأنها غيره معتبرا أنها شخص مثله في الصفة التي سيق لها الكلام .

والمبالغة التي يقتضيها التجريد فى هذا النوع هو ادعاء بلوغ النفس مرتبة من كمال الإدراك يتصور معها أن فيها نفسا أخرى ، فيخاطبها ، حتى كأنها تقابله أو تخاطبه ، كما قال ابن جنى .

وإلى هذه الصورة أشار بقوله : « وعلى هذا يخاطب الإنسان منهم نفسه ، حتى كأنها تقابله أو تخاطبه . . » .

ومن أحسن ما جاء من هذاالقسم من أقسام التجريد قوله تعالى : ﴿ **يوم تأتي كلُّ نفسٍ تجادل عن نفسها** ﴾ [1] صيرها لشدة جدالها كأنها تجادل عن غيرها .

---

(١) سورة النحل ، الآية ١١١ .

وبهذا يكون هذا القسم غير مختص بحال الخطاب كما في بيت الأعشى والآية الكريمة من سورة البقرة على قراءة حمزة والكسائي اللذين مثل بهما ابن جنى لهذه الصورة ، لأنه قد مثل لها أيضا بشعر شبيه بآية سورة النحل ، وذلك فى قوله : وعليه جاء قوله :

يا نفسُ صبرا كلُّ حيٍّ لاقِ وكلُّ اثنين إلي افتراق

وقول الآخر :

أقول للنفس تأساءً وتعزيةً إحدى يدىَّ أصابتني ولم ترد[1]

وإلى ما نص عليه ابن جنى ذهب بهاء الدين السبكى حيث قال : « وقد يكون ذلك بغير المخاطبة »[2]، فلا وجه لنسبة هذا إليه من قبل العلامة المرشدي [3]، إذ أنه مسبوق إلي ذلك من ابن جنى .

وكذلك ما ذكرنا من وجه المبالغة فى هذه الصورة من صور التجريد في آية سورة النحل للسبكى ، مسبوق إليه أيضا من ابن جنى.

قال السبكى : « فإن قيل : أين المبالغة فى التجريد بخطاب الإنسان لنفسه ؟ قلت : كأنه يجعل نفسه لكمال الإ دراك كأن فيها نفسا أخرى »[4] .

فهذا الذى قاله السبكي هو مضمون ما قاله ابن جنى في معنى التجريد ، وقد مر كلامه في ذلك .

الصورة الثالثة : ما يكون بدخول « في » على المنتزع منه نحو قوله تعالى : (لهم فيها دار الخلد) فقد بولغ في اتصاف جهنم بكونها دارا ذات عذاب مخلد

---

(١) الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

(٢) شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٥٧ .

(٣) شرح عقود الجمان جـ ٢ ص ١١٣ .

(٤) شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٥٧ .

حتى صارت بحيث تفيض وتصدر عنهادار أخرى ، هي مثلها في الاتصاف بكونها دارا ذات عذاب مخلد .

و « في » في الآية للظرفية المجازية ، وقد مر الكلام على التجريد في الآية عند الحديث عن التجريد عند سيبويه والأعلم الشنتمري .

الصورة الرابعة : التجريد فى هذه الصورة قد يكون بحرف « من » أو « فى » أو « الباء » وهذا ما نراه في الشواهد التي استشهد بها ابن جنى لهذه الصورة ، قال : وقال الأعشى :

لات هَنَّا ذكرى جُبيرةَ أم مَن جاء منها بطائف الأهوال[1]

وهي نفسها الجائية بطائف الأهوال .

وأنشدنا (أبو على الفارسي) :

أفاءت بنو مروان ظلما دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

وهذا غاية البيان والكشف ، ألا ترى أنه لا يجوز أن يعتقد أن الله سبحانه ظرف لشيء ولا متضمن له ، فهو إذا على حذف المضاف ، أي في عدل الله حكم عدل .

وأنشدنا :

بنزوة لص بعد ما مر مصعب بأشعث لايُفْلى ولا هو يَقْمَلُ

ومصعب نفسه هو الأشعث . وأنشدنا :

جازت البيدا إلى أرحلنا اخر الليل بيعفور خدر(٢)

وهي نفسها اليعفور .

(١) من شواهد النحاة ، ينظر شرح المفصل جـ ٣ ، ص ١٧ ، وجمهرة أشعار العرب للقرشي جـ ٣ ، ص ٣٢٢ .

(٢) سبق ذكر هذه الأبيات ، وسيأتي ذكرها مرة أخرى عند الحديث عن التجريد في « المحتسب » .

وبهذا يكون ابن جنى قد تناول في مبحث « التجريد » أكثر أقسامه وصوره التي عرفت عند البلاغيين بعده ، وإن كان قد سبق إلى أكثها ، ولكن يبقى تفرده بذكر معنى التجريد ، وما قاله في التجريد بخطاب الإنسان نفسه ، وأشياء أخرى تقف عليها عندما تقارن بين ما قاله وما ذكره من سبقه ، وخاصة المبرد ، وأبو علي الفارسي ، هذا إضافة إلى أنه يعد أول من أفرد هذا الفن بباب خاص به ، وأول من أطلق عليه مصطلح التجريد .

التجريد ضرب من العربية غريب لطيف وطريف :

بدأ ابن جنى الحديث عن هذاالفن في « الخصائص » بهذا الوصف : « اعلم أن هذا فصل من فصول العربية طريف حسن »[1] .

وقال في « المحتسب » : « وهذا يتصل بباب من العربية غريب لطيف وهو باب التجريد »[2]، وقال أيضا : « هذا ضرب من العربية غريب ، ومعناه التجريد »[3] ، وقال مرة ثالثة : « وقد أفردنا لهذا الضرب من العربية بابا من كتاب « الخصائص » فاعرفه ، فإنه موضع غريب لطيف وطريف »[4] .

وحديثنا في هذا المبحث سيكون عن التجريد في كتاب « المحتسب » بعد أن درسنا التجريد في كتاب « الخصائص » .

وهذا الكتاب ألفه أبو الفتح في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، وواضح أن هذا الكتاب ليس كتابا في اللغةوالنحو كماهو الحال في «الخصائص» .

وقد كان لابن جنى لمحات وإشارات بلاغية قيمة في معاني تلك القراءات ، شملت فنونا بلاغية كثيرة ، ومن يتتبعها ويجمعها سيجد نفسه قد جمع في يديه كنزا قيما وذخيرة نفيسة .

وقد حظي فن التجريد بنصيب وافر في هذا الكتاب ، فأشار ابن جنى الى هذا المصطلح وحسن مواقعه في مواضع عدة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن التلميذ مثله مثل أستاذه في الشغف والولوع والعناية والاهتمام بهذا الفن البلاغي الرفيع .

---

(١) الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٢) المحتسب جـ ١ ، ص ١٠٦ .

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٣٨ .

(٤) المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٣٩ .

ومن ذلك ما ذكره في قراءة الحسن البصري رضي الله عنه : (اهدنا صراطا مستقيما »[1] .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون أراد[2] ـ والله أعلم ـ التذلل لله سبحانه ، وإظهار الطاعة له ، أي قد رضينا منك يا ربنا بما يقال له : صراط مستقيم ،

ولسنا نريد المبالغة في قول من قرأ : « الصراط المستقيم » أى : الصراط الذي قد شاعت استقامته وتعولمت في ذلك حاله وطريقته فإن قليل هذا منك زاك عندنا وكثير من نعمتك علينا ، ونحن له مطيعون ، وإلى ما تأمر به وتنتهي فيه صائرون .

وزاد في حسن التنكير هنا ما دخله من المعنى ، وذلك أن تقديره : أدم هدايتك لنا ، فإنك إذا فعلت ذلك بنا فقد هديتنا إلى صراط مستقيم .

فجرى حينئذ مجرى قولك : « لئن لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلقين منه رجلا متناهيا في الخير ، ورسولا جامعا لسبل الفضل » .

فقد آلت به الحال إلي معنى التجريد ، كقول الأخطل :

بنزوة لص بعدما مر مصعب بأشعث لا يُفْلى ولا هو يَقْمَلُ

ومصعب نفسه هو الأشعث ، وعليه قول طرفة :

جازت القوم إلى أرحلنا آخر الليل بيعفور خدر

وهي نفسها عنده اليعفور . أنشدنا أبو على :

أفاءت بنو مروان أمس دماءنا وفى الله إن لم يحكموا حكم عدل

وهو سبحانه أعرف المعارف ، وقد سماه الشاعر حكماً عدلاً ، فأخرج اللفظ مخرج التنكير .

---

(١) فاتحة الكتاب ، الآية ٦ .

(٢) أي : القاريء وهو الحسن البصري .

فقد ترى كيف آل الكلام من لفظ التنكير إلى معنى التعريف ، وفيه مع ذلك لفظ الرضا باليسير .

وعليه قول الله عز اسمه : (ولهديناهم صراطا مستقيما)[1] أى :

هديناهم من نعتمنا عليهم ، ونَظَرِنا لهم صراطا مستقيما .

وقال كثير :

أمير المؤمنين على صراط ـــ إذا اعوج الموارد ـــ مستقيم

وهذا كقولك : أمير المؤمنين على الصراط المستقيم لا فرق بينهما ، وذلك أن مفاد نكرة الجنس مفاد معرفته من حيث كان في كل جزء منه معنى ما في جملته ، ألا ترى إلى قوله :

وأعلم إن تسليما وتركا للا متشابهان ولا سواءُ

فهذا في المعنى كقوله : إن التسليم والترك لا متشابهان ولا سواء[2]

* * *

هذا الذي قاله ابن جنى في تنكير « صراطا مستقيما » في قراءة الحسن والضحاك، كلام في غاية الجودة والحسن ، يدل على أن نكتة التنكير هي التقليل ، بل قد صرح بذلك في قوله : (فإن قليل هذا منك لنا زاك عندنا وكثير من نعمتك علينا . .) وهو كلام ـ كما قلت ـ جيد حسن ، شبيه بما قاله البلاغيون في تنكير المسند إليه « رضوان » من قوله تعالى : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ورضوان من الله أكبر)[3] قالوا : أي وشيء ما من رضوانه أكبر من ذلك كله ، لأن رضوانه سبب كل سعادة وفلاح ، ولأن العبد إذا

---

(١) سورة النساء ، الآية ٦٨ .

(٢) المحتسب جـ ١ ، ص ٤١ ـ ٤٣ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٧٢ .

علم أن مـولاه راض عنه فـهـو أكـبـر في نفسـه ممـا وراءه من النعم ، وإنما تهنأ له برضاه ، كما إذا علم بسخطه تنغصت عليه ، ولم يجد لها لذة وإن عظمت [1] .

أما قول ابن جنى : « وزاد في حسن التنكير هنا ما دخله من المعنى ، وذلك ان تقـديره : أدم هدايتك لنا ، فـإنك إذا فـعلت ذلك بنا فـقـد هديتنا إلى صـراط مستقيم » فما أفهمه منه هو أن في « صراطا مستقيما » تجريدا ، ولكن المنتزع منه هذا اللفظ مقدر ، والمقدر من الكلام في حكم المذكور ، والدليل على ذلك قوله : « فـقـد آلت به الحـال إلى مـعنى التـجريد » وبيانه : أن القـارىء : « اهدنا صـراطا مستقيما » قد جرد من الصراط المستقيم ـ المعرف تعريف الجنس المفيد أنه الصراط الذي قد شاعت استقامته وتعولمت في ذلك حاله وطريقته ـ صراطا مستقيما اخر ، هو بعض ذلك الصراط المعرف وكأن الصراط المستقيم قد بلغ من كمال الاستقامة حدا صح أن ينتزع منه صراط آخر مثله في تلك الصفة وهي الاستقامة. والمثال التجريدي الذي ذكره تنظيرا لهذا التجريد المقدر فيه المنتزع منه مثال صحيح ، ولكن التنظير به غير صحيح ، لأن المثال من قبيل التجريد الاصطلاحي المذكور فيه المنتزع والمنتزع منه ، وهو : « لئن لقيت رسول الله ﷺ لتلقين منه رجلا متناهيا في الخير ، ورسولا جامعا لسبل الفضل » ، أما التجريد في « صراطا مستقيما » فالمنتزع منه وهو الصراط المعرف تعريف الجنس غير مذكور في الكلام.

والتجريد في هذا المثال تجريد بليغ ، وهو فيه بواسطة الحرف « من » الداخلة على المنتزع منه وهو رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، الذي جـرد وانتـزع منه رجل آخر متناه في الخير ، ورسول جامع لسبل الفضل ، فقد بلغ رسول الله ﷺ في تلك الصفة وهي التناهي في الخير والجمع لطرق الفضل كلها ، الغاية ، حتى صح أن يستـخلص منه رجل ورسـول آخر مثله في تلك الصفـة ، وهو عـينه ذلك الرجل والرسول .

---

(١) الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٩٠ ، والإيضاح جـ ١ ، ص ١٢٨ .

هذا ما تيسر فهمه ، فإن كان صوابا فهو من الله ، وإن كا خطأ فهو مني .

* * *

وعبارة ابن جنى وهي : « وزاد في حسن التنكير هنا ما دخله من المعنى » عبارة لها مغزاها ولها مدلول بعيد المرمى ، فهو يريد أن يقول : إن نكتة التنكير التي أفادتها هذه القراءة نكتة حسنة ، وزاد من حسنها ما دخل التنكير من حسن المعنى ا لذي أفاده التجريد ، وهذه لفتة فيها ما فيها من تعظيم لشأن هذا الفن البلاغي الذي إذا صحب نكتة وفنا بلاغيا آخر زاد في حسنه وبلاغته .

وكأن ابن جنى يريد أن يقول للبلاغيين الذي جعلوا التجريد مجرد محسن معنوي عرضي لا ذاتي ، لقد تنكبتم الجادة ، وجرتم في الحكم ، فليس الحسن الذي يضفيه التجريد على الكلام الداخل فيه حسنا عرضيا ، بل إن حسنه وبلاغته لذات المعنى ، وإن فائدته من العظم بحيث تضارع فائدة التنكير ، بل فائدة أى فن بلاغي آخر ، فالتنكير يفيد الحسن الذاتي للكلام ، فكذلك التجريد ، الذي زاد من حسن التنكير حين انضم إليه .

* * *

وفي موضع آخر من « المحتسب » قال أبو الفتح ابن جنى : ومن ذلك قراءة ابن عباس فيما رواه سليمان بن أرقم عن أبي يزيد المدني عن ابن عباس : « فَأُمْتِعُهُ قليلا ثم اضْطَرُّهُ »(١) .

على الدعاء من إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) قال أبو الفتح : أما على قراءة الجماعة : « فَأُمْتِعُهُ قليلا ثم أَضْطَرُّهُ » فإن الفاعل في (قال) هو اسم الله تعالى أي : لما قال إبراهيم : (رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٦ .

آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال الله : (ومن كفر فَأُمَتِّعُهُ قليلا ثم أَضْطَرُّهُ إلي عذاب النار) .

وأما على قراءة ابن عباس : « فَأَمْتِعْهُ قليلا ثم اضْطَرُّهُ إلي عذاب النار » فيحتمل أمرين :

أحدهما ـ وهو الظاهر ـ أن يكون في (قال) ضمير إبراهيم عليه السلام أي : قال إبراهيم أيضا : ومن كفر فأمتعه يارب ثم اضطره يارب . . .

وأما الآخر : فهو أن يكون الفاعل في (قال) ضمير اسم الله تعالى أي : فأمتعه يا خالق ، أو فأمتعه يا قادر أو يا مالك أو يا إله ، يخاطب بذلك نفسه (عز وجل) ، فجرى هذا على ما تعتاده العرب من أمر الإنسان نفسه ، كقراءة من قرأ : « قال : اعلم أن الله على كل شيء قدير » أي : اعلم يا إنسان . وكقول الأعشى :

* وهل تطيق وداعا أيها الرجل [1] *

وهذا يتصل بباب من العربية غريب لطيف وهو باب التجريد ، كأنه يجرد نفسه منه ثم يخاطبها . وقد ذكرنا هذا الباب في كتابنا الخصائص .

* * *

وهذا وإن كان مما لا ينبغي أن يجرى في الحقيقة مثله على الله (سبحانه) لأنه لا تجزؤ هناك ، فإنه يجرى على عادة القوم ومذهب خطابهم ، وقد نطقوا بهذا نفسه معه (تقدست أسماؤه) أنشدنا أبو على :

أفاءت بنو مروان ظلما دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

فجرى اللفظ على أنه جُرد منه شيء يسمى حكما عدلا ، وهو مع التحصيل على حذف المضاف ، أي : وفي عدل الله حكم عدلا . فتفهم هذه المواضع ، فإن قدر الإعراب يضيع إلى معناها ، وإن كان هو أول الطريق ونهجه إليها [2] .

---

(١) ينظر الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٤ ، وقد سبق ذكر هذا الكلام والتعليق عليه .

(٢) ينظر المحتسب جـ ١ ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

قراءة : فأمتعه قليلا ثم اضطره » على صيغة الأمر في الفعلين ، هي قراءة ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وقد رجح ابن جنى أن يكون الفاعل في (قال) ضمير إبراهيم عليه السلام ، يدل على هذا قوله : « وهو الظاهر » ، وغير ابن جنى من المفسرين والمعربين للقرآن، بعضهم اقتصر على الوجه الأول، ولم يلتفت إلى الوجه الآخر ، وهو كون فاعل (قال) ضمير اسم الله تعالى ، ولم يشر إليه لضعفه ، قال أبو حيان : فأما على هذه القراءة فيتعين أن يكون الضمير في (قال) عائدا على إبراهيم لمادعا للمؤمنين بالرزق دعا على الكافرين بالإمتاع القليل والإلزاز إلى العذاب[1] وقد ذهب الى ذلك قبله الإمام الزمخشري[2] وبعضهم ذكر الوجه الثاني وهو كون فاعل (قال) ضميرا عائدا على الله تعالى ، ولكنه وصفه بالبعد ، محتجا بأن الوجه الأول مروى عن السلف ، قال الشهاب معلقا على قول البيضاوي : « وقرىء بلفظ الأمر فيهما على أنه من دعاء إبراهيم وفي (قال) ضميره » .

قوله: (وقرىء بلفظ الأمر) من الإمتاع ،واضطره أمر بفتح الراء كما في نحو شده، وهذه القراءة منقولة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال ابن جنى : ويحتمل أن يكون ضمير (قال) لله أي : فأمتعه يا قادر يا رازق خطابا لنفسه على طريق التجريد ، ولم يلتفت إليه المصنف لبعده »[3] .

وقد حكى الألوسي ماذكره الشهاب ثم علق عليه بقوله : « بعيد جدا ، لا ينبغي أن يلتفت إليه »[4] .

وما ذهب إليه هؤلاء المفسرون هو الحق ، ولايجوز تجويز الأشياء البعيدة ، والتقادير المستغنى عنها ، ونحن ننزه القرآن عن ذلك ولو كان هذا التقدير وذاك

(١) البحر المحيط جـ١ ، ص ٣٨٥ ، والدر المصون جـ٢ ، ص ١١١ .
(٢) ينظر الكشاف جـ١ ، ص ١٨٦ .
(٣) حاشية الشهاب جـ٢ ، ص ٢٣١ .
(٤) روح المعاني جـ١ ، ص ٣٨٢ .

الوجه أبلغ في المعنى من غيره ، كما هو الحال في هذه القراءة ، فإن في القول بأن فاعل (قال) ضمير اسم الله تعالى يجعل في الكلام تجريدا وهو فن بلاغي جزل ، ولكن كلام الله لا ينبغي أن يحمل إلا على أجزل الألفاظ وأظهر الوجوه وأقواها .

وقياس ابن جنى قراءة ابن عباس هذه على أن فاعل (قال) ضمير اسم الله تعالى ، على قراءة حمزة والكسائي : « قال : اعْلَمْ أن الله على كل شيء قدير » ـ وقد مر كلامه وكلام أبي على عنها مفصلا ـ قياس مع الفارق ، فإن فاعل (قال) هنا يرجح كونه ضميرا عائدا على المار فهو الآمر نفسه المخاطب لها على سبيل التجريد ، ويرجح ذلك الضمير في « له » فهو عائد عليه ، أي : فلما تبين للمار أن الله على كل شيء قدير . قال الشهاب : « وقراءة « اعلم » على الآمر خطاب لنفسه على طريق التجريد .

وقال البيضاوي : « والآمر مخاطبه ، أو هو نفسه خاطبها به على طريق التبكيت » قال الشهاب معلقا على هذا الكلام : (وقوله والآمر) على لفظ اسم الفاعل ، والمخاطب بكسر الطاء هو الله أو النبي ﷺ ، أو، الملك ، ولا تجريد حينئذ ، وقوله (أو هو نفسه) فهو تجريد[1] . والوجه : أن يكون هو الآمر نفسه مخاطبا لها على سبيل التجريد ، إذ القول بأن الآمر هو الله أو النبي أو الملك يضيع هذه النكتة الجزلة التي أفادها التجريد ، ولا محظور في القول بذلك[2] ، كما هو الحال في القول بأن فاعل (قال) هو اسم الله تعالى .

* * *

قال ابن جنى : ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب وابن عباس (عليهما السلام) وابن يعمر وأبي حرب ابن أبي الأسود ، والحسن والجحدري وقتادة وأبي نهيك وجعفر بن محمد : « يرثني وارث من آل يعقوب »[3] .

---

(١) حاشية الشهاب جـ ٢ ، ص ٣٤٠ .

(٢) ينظر الدر المصون جـ ٢ ، ص ٥٧١ .

(٣) سورة مريم ، و الآية ٦ .

قال أبو الفتح : هذا ضرب من العربية غريب ، ومعناه التجريد ، وذلك أنك تريد : فهب لي من لدنك وليا يرثني منه أو به وارث من آل يعقوب ، وهو الوارث نفسه ، فكأنه جرد منه وارثا . ومثله قول الله تعالى (لهم فيها دار الخلد) فهي نفسها دار الخلد ، فكأنه جرد من الدار دارا .

وقد أفردنا لهذا الضرب من العربية بابا من كتاب الخصائص ، فاعرفه ، فإنه موضع غريب لطيف . وقد ذكرناه أيضا فيما مضى[1] .

* * *

قد بين ابن جنى التجريد في هذه القراءة بيانا شافيا كافيا ، لم يستطع أحد من المفسرين بدءا من الإمام الزمخشري أن يزيد عليه ، بل كلامه هنا أوضح مما قالوه .

وقوله رحمه الله : « يرثني منه أوبه وارث من آل يعقوب ، وهو الوارث نفسه ، فكأنه جرد منه وارثا » يشير به إلى أن التجريد بواسطة حرف مقدر داخل على المنتزع منه وهو الولي ، قد يكون « من » أو الباء ، وبواحد منهما يتحقق التجريد ، وقد يكون بدون حرف .

قال الشهاب : والتقدير : يرثني وارث منه أو به ، والوارث هو الولي ، فجرده منه .

وقال البيضاوي : وقرىء « يرثني وارث من آل يعقوب » على أنه ـ أي الوارث ـ فاعل يرثني ، وهذا يسمى التجريد في علم البيان ، لأنه جرد عن المذكور أو لا مع أنه المراد[2] .

وقال الألوسي : وقرأ جماعة : « يرثني وارث » برفع وارث بزنة فاعل على أنه فاعل يرثني على طريقة التجريد كما قال أبو الفتح وغيره ، أي يرثني ولى من ذلك الولى أو به فقد جرد من الولي وليا ، كما تقول : رأيت منه أو به أسدا[3] .

وقال الزمخشرى : وعن على رضي الله عنه وجماعة : وارث من آل

(١) ينظر المحتسب جـ ٢ ، ص ٣٨ ، ٣٩ . (٢) حاشية الشهاب جـ ٦ ، ص ١٤٦ .
(٣) روح المعاني جـ ١٦ ، ص ٦٣ ، وينظر البحر المحيط جـ ٦ ، سص ١٧٤ والدر المصون جـ ٧ ، ص ٥٦٨

يعقوب : أي : يرثني به وارث ، ويسمى التجريد في علم البيان ، والمراد بالإرث : ارث الشرع والعلم ، لأن الأنبياء لا تورث المال[1] . فعلى هذه القراءة يكون قد جرد من الولى الوارث وليٌّ وارث اخر وهو هو نفسه ، وفي هذا مبالغة في ولاية الولى الوارث أي أنه قد بلغ الكمال في صفة الولاية والإرث إلى حد صح أن ينتزع ويستخلص منه ولى وارث له نفس تلك الصفة ، مبالغة في كمالها في المنتزع منه .

* * *

وبما ذكره ابن جنى عن التجريد في « الخصائص » و « المحتسب » وبالوقوف على دراسته له ولصوره وشواهده ، وبعض القراءات القرآنية التي وجها على التجريد في الكتابين المذكورين ، وبالوقوف أيضا على دراسة الأعلم الشنتمري والمبرد وأبي على الفارسي وما قالوه في شواهده وصوره ، يكون هؤلاء الأئمة الأجلاء وعلى رأسهم إمام النحاة سيبويه الذي وضع البذرة الأولى التي أنبتت شجرة هذا افن الغريب اللطيف ا لطريف ، يكون الطريق قد مهد وعبد أمام البلاغيين لدراسة هذا الفن .

وها هو ذا قد وصل إليهم من النحويين واللغويين ، وقد أوشك على بلوغ الكمال ، فلننظر الآن فيما قاله البلاغيون في فن « التجريد » ونتبين هل أضافوا شيئا على ما قالوه ؟ وما هذا الشيء الذي أضافوه ؟ وما وزنه وقيمته بجانب هذه الدراسة الخصبة والبحوث القيمة التي تقدم الحديث عنها في الصفحات السابقة ؟

ولكن لن يكون ذلك إلا بعد التعرف على ما قاله في التجريد صاحب « إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج » .

---

(١) الكشاف جـ٣ ، ص ٥ .

التجريد في إعراب القرآن :

كتاب « إعراب القرآن » المنسوب إلى الزجاج ، يعد الكتاب الثاني بعد « الخصائص الذي أفرد فيه صاحبه التجريد بباب خاص به .

ويتميز مبحث التجريد في هذا الكتاب بأمرين :

الإكثار من ذكرشواهد للتجريد من القرآن والشعر ، وما هو من القرآن أكثر مما هو من الشعر .

ذكر بعض أقوال لأبي علي الفارسي وابن جنى في التجريد ، وذلك من خلال حديث صاحبه عن التجريد في بعض آيات القرآن وأبيات الشعر ، وتفرده بذكر ماقاله أبو علي الفارسي في مسألة « الكتاب» وهي : «أما أبوك فلك به أب» .

قال صاحب الكتاب : الخامس والثلاثون : هذا باب ما جاء في التنزيل من التجريد .

وهو باب شريف لطيف يعز وجوده في كتبهم ، وذلك نحو قولهم : « لئن لقيت فلانا لتلقين منه الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر » فظاهر هذا أن فيه من نفسه أسدا أو بحرا ، وهو عينه الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه وممتازا منه .

وعلى هذا يخاطب الإنسان منهم نفسه حتى كأنها تقابله أو تخاطبه [1] .

وقد يكون ذلك بحرف « الباء » و « من » وحرف « في » فمن ذلك قوله تعالى : (مالك من الله من ولي ولا نصير)[2] .

أي : مالك الله وليا .

---

(١) ينظر الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٢٠ .

وقال : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾[1] ، أي : كونوا أمة .

وقال : ﴿واجعل لنا من لدنك وليا﴾ أي : كن لنا وليا .

(واجعل لنا من لدنك نصيرا)[2] ، أي : كن لنا نصيرا .

وقال : ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب﴾[3] ، أي لكم هوشراب .

وقال تعالى : ﴿ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد﴾[4] أي : لهم هي دارالخلد .

ومسألة « الكتاب » جاء بالباب : (أما أبوك فلك به أب) أي : لك منه أو به ، أي : بمكانه ، أب[5] .

وأما قوله تعالى : ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾[6]

فقد قال أبو علي : جعلنا بدلكم ملائكة ، لأن الإنسان لا يكون منهم ملائكة وقال :

كسوناها من الريط اليماني ملاء في بنائقها فضول[7]

وإن جعلت « من » كالتي في قوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير »

و : * يأبى الظلامة منه النوف الزفر *

كان التقدير : ولو نشاء لجعلنا منكم مثل ملائكة ، أي : فلا تعصون كما لا يعصون ، فأجبرناكم على الطاعة .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٧٥ .

(٣) سورة النحل الآية ١٠ .

(٤) سورة فصلت ، الآية ٢٨ .

(٥) ينظر الخصائص جـ ٢، ص ٤٧٥ ، والكتاب جـ ١ ، ص ٣٩٠ .

(٦) سورة الزخرف ، الآية ٦٠ .

(٧) البنائق : جمع بنيقة وهي : لبنة القميص وجربانه . القاموس المحيط ، ص ١١٢٣ (البنيقة) .

وقال أبو على : لك به أب ، أي : بمكانه ، فقولك : « بمكانه » في موضع ظرف ، والعامل فيه « لك » وكذلك : « لهم فيها دار الخلد » « فيها » ظرف ، والعالم فيه « لهم » ، ويجوز على قول الشاعر :

أفاءت بنو مروان أمس دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل[1]

لا يكون إلا مستقرا ، فإذا صح هذا هاهنا وجب جواز كونه مستقرا في الآية أيضا ، وكما تجعل هذا بمنزلة الظرف كذلك تجعل الجار والمجرور في موضع المفعول من قوله :

بنزوة لص بعد ما مر مصعب بأشعث لا يُفْلى وله هو يَقْمَلُ

و « مصعب » نفسه هو الأشعث . وقالوا : في هذا الدرهم خلف من هذا الدرهم ، أي : هذا الردهم خلف ، وكذلك : « لهم فيهادارالخلد » أي : لهم النار دارالخلد ، وقال :

أخو رغائب يعطيها ويسألها يأبى الظلامة منه النوفل الزفر

فـ « أخو رغائب » هو « النوفل الزفر » ، فقال : منه النوفل ، وهو .

قال عثمان في قوله :

* وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل *

في هذا غاية البيان والكشف ، ألا ترى أنه لا يجوز أن يعتقد أن الله تعالى ظرف لشيء ولا متضمن له ، فهو إذا حذف المضاف ، أي عدل الله عدل حكم[2] ومثله : (فاسأل به خبيرا)[3] أي : اسأل الله خبيرا[4] .

---

(١) صدره في « إعراب القرآن » :

* أفادت بنو مروان قيسا دماءنا *

(٢) الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٥ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٥٩ .

(٤) ينظر إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج جـ ٢ ، ص ٦٦٤ـ٦٦٦ .

وهـو مبحث كمـا ترى لم يتقدم صاحبه فيه بالتجريد خطوة واحدة إلى الأمام ، فهو لم يذكر شيئا عن مصطلح التجريد ، وأكثر ما قاله في تحليل الأبيات الشعرية ، وبيان التجريد فيها مأخوذ من كلام أبي علي وتلميذه ابن جنى .

غيـر أن ما يذكر له هو إثراء هذا الفن البـلاغي بشواهد كـثيرة من القرآن ، وكذلك عقد باب خاص به في هذا الكتاب ، وإشادته وتنويهه ووصفه له بأنه باب شريف لطيف .

والله تعالى أعلم

الفصل الثانـــي

مصطلح التجريـــد

فى

بحوث البلاغيين

هل تعرض البلاغيون قبل الجرجاني لمصطلح التجريد ؟

كان يعاصر أبا الفتح عثمان بن جنى في القرن الرابع الهجرى عالم كبير من علماء النقد والبلاغة هو أبو هلال العسكرى[1] صاحب كتاب « الصناعتين » وقد كان له جهد كبير وعناية فائقة بالبديع ، وعرض ألوانا منه محددة مفصلة مشفوعة بالشواهد الكثيرة من مختار الكلام نثره ونظمه ، وحلل تلك الشواهد تحليلا أقرب إلي الذوق ا لعربي ، وأحسن استخدام طريقتي ابن المعتز وقدامة في الباب الخاص بالبديع الذي عقده في كتابه الصناعتين .

ولنا أن نتساءل بعد ذلك : أفطن أبوهلال لمصطلح التجريد ـ الذي يعد من وجهة نظر كثير من أهل العلم من أرقى ألوان البديع ـ فذكره بين ما ذكره من تلك الألوان التي عرضها في هذا الباب ، أم أنه لم يفطن له ، ولم يطلع على ما قاله معاصره فيه وهو ابن جنى وقبله أستاذه أبو على الفارسى ، ولذا فلم يكن له في كتابه نصيب ؟

الجواب : لم يتعرض أبو هلال لهذا المصطلح البديعي في كتابه الصناعتين ، فلم يرد له ذكر بين ألوان البديع التي عرض لها في الباب الذى أفرده له ، والذى اشتمل على خمسة وثلاثين لونا ، ثم زاد على تلك الألوان التي أوردها المتقدمون ستة أنواع هي : التشطير ، والمجاورة ، والتطريز ، والمضاعفة ، والاستشهاد ، والاحتجاج والتلطف ، والاشتقاق[2] .

وبذلك يكون كتابه قد خلا من هذا الفن ا لذى كان أبو على الفارسى به غريا معنيا كما يقول ابن جنى ، والذي وصفه أبو الفتح بتلك الأوصاف التى سبق ذكرها ، والتى لم يحظ بها فن بلاغى آخر .

---

(١) هو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ـ نسبة إلى عسكر مكرم مدينة بالأهواز ـ الأديب اللغوى الشاعر العالم الفقيه ، صاحب كتاب الصناعتين صناعتي النثر والنظم ، وغيره من المصنفات الجيدة ، توفى رحمه الله سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . ينظر معجم الأدباء جظ ٢ ، ص٩١٨ .

(٢) ينظر الباب التاسع في شرح البديع ص ٧٢٢ ـ ٤٥٠ .

وقد صنع أبو هلال هذا مع أن معاصره ابن جنى قد أفرد له بابا خاصا به في اعظم كتبه وهو « الخصائص » .

والتجريد الذى أهمله أبو هلال لا يختلف أحد في أنه خير من تلك الفنون التي ابتدعها ، والتي لقلة شأنها لم يلتفت إليها أحد من المتقدمين .

فإذا تركنا أبا هلال إلى غيره من علماء البديع في القرن الخامس الهجرى ، باحثين ومنقبين عن مصطلح التجريد في مصنافتهم ، وجدنا أطول رجاله باعا ، وأفسحهم ميدانا ، وأوسعهم تصرفا في فنونه : الحسن ابن رشيق القيرواني[1] وكتابه الحافل « العمدة » قد احتوى على ستة ومائة باب ، والذى يهمنا من هذه الأبواب هو القسم الخاص بالبديع ، فقد جال فيه ابن رشيق جولات واسعة ، وسبق إلى بعض ألوان منه وعنون لها ، وقد بلغت خمسة وثلاثين بابا ، عقدها ابن رشيق لألوان البديع ، ليس من بينها « التجريد » فهو لم يشر إليه مجرد إشارة وبذلك يكون قد سار على سنة من قبله : ابن المعتز ، وقدامة ، وأبى هلال العسكرى ، مع أن بعض ألوان البديع التي ذكرها أدنى منزلة وأقل شأنا من ذلك الفن البديعى وهو « التجريد » .

* * *

وقد عاصرابن رشيق فى القرن الخامس الهجرى عالم كبير من علماء البلاغة هو ابن سنان الخفاجى[2] صاحب كتاب « سر الفصاحة » إلا أن أولهما عاش فى المغرب والآخر فى المشرق ، ويعد « سر الفصاحة » من أحسن ما ألف فى

---

(١)هو الحسن بن رشيق القيرواني مولى الأزد ، كان أحد شعراء ا لقيروان المجيدين وعلمائها المبرزين ، أجل كتبه التي خلفها وأعمها نفعا : كتاب العمدة في محاسن ا لشعر وآدابه . توفى رحمه الله سنة ٤٥٦ هـ . ينظر معجم الأدباء جـ ٢ ص ٨٦١ .

(٢) هو أبو محمدبن عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ . ينظر تاريخ علوم البلاغة ص ٩٨ .

البلاغة ، وقد اشتمل على كثير من المباحث البلاغية القيمة ، ولكن الذى يعنينا من هذا الكتاب هو ما عرض له ابن سنان من ألوان البديع ، أكان التجريد من بين تلك الألوان التي درسها ، أم أنه أهمله كما أهمله من سبقه من البلاغيين ؟

الجواب : إن التجريد لم يرد له ذكر بين الفنون البلاغية التى درسها ابن سنان فى كتابه المذكور ، وهذا أمر غريب من أمير شاعر ، والتجريد طريقة من طرق التعبير عند الشعراء ، قد عرفوه واستعملوه فى كلامهم منذ امرىء القيس القائل :

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلى ولم ترقد

وبما ذكرناه عن موقف البلاغيين من بحث التجريد قبل عبد القاهر الجرجاني يتبين لنا أن البلاغيين الذين ألفوا فى البلاغة بدءاً من ابن المعتز فى كتابه « البديع » وانتهاء بابن سنان الخفاجى فى « سر الفصاحة » لم يتعوضا لهذا الفن الجميل فى كتبهم ، ولم يشيروا إليه مجردة إشارة .

وأريد أن أستدرك على ما ذكرته عن شاعرية ابن سنان التي كان ينبغى من أجلها أن يتنبه لهذا الفن وهو التجريد ويتناوله فى كتابه بالدراسة ، أن ابن رشيق يشاركه فى ذلك حيث إنه كان مثله شاعرا ، فكان عليه هو الآخر أن يجعل لهذا الفن مكانا فى كتابه .

التجريد عند عبد القاهر الجرجاني :

يعد عبد القاهر الجرجانى أول من أشار من البلاغيين إلى التجريد فى كتابيه « الأسرار » و « الدلائل » وذكر بعض صوره التي تعرض لها قبله النحويون واللغويون بدءًا من المبرد .

ولكنه لم يذكر مصطلح التجريد عند ذكره لتلك الصور ، ولم يطلق عليها هذا الاسم وهذا شيء غريب ، فالمعروف أن « الخصائص » وقبله « الكامل » من أهم مراجع ومصادر عبد القاهر فى دراسة مسائل البلاغة ، وإذا تجاوزنا كتاب « الكامل » الذي لم يذكر صاحبه فيه مصطلح التجريد ، فإننا نجد هذا المصطلح لم يأت ذكره عرضا فى ثنايا بحث ابن جنى لقضايا النحو والتصريف واللغة فى « الخصائص » بل أفرد له بابا خاصا به ، ولا بد أن يكون عبد القاهر قد اطلع على هذا الباب ووقف على ماقاله فيه ابن جنى وما نقله عن أستاذه أبى على الفارسى .

وقد صرح عبد القاهر بذكر بعض أسماء فنون من البديع في الأسرار والدلائل بعضها أقل شأنا وأدنى مرتبة من فن التجريد الذى قد ضن بالنص على اسمه وهو بصدد ذكر بعض أمثلته فى الكتابين المذكورين .

ومما يدل ـ وإن كانت المسألة من الظهور بحيث لا تحتاج إلى دليل ـ أن عبد القاهر قد كان على دراسة ومعرفة بما ذكره المبرد وابن جنى وربما الفارسى أيضا في « التجريد » أن الأمثلة التى مثل بها له سبق ذكر المبرد والفارسى وابن جنى لها ، وتلك النصوص والأمثلة التي ذكرها تمثل أربع صور من صور التجريد :

إحداها : ما كان التجريد فيها مبنيا على التشبيه ، والثانية : ما كان التجريد فيها بالحرف « فى » ، والثالثة : ما كان التجريد فيها بمن الداخلة على المنتزع منه ، والرابعة ما كان التجريد فيها على طريق الكناية .

ونضيف إلى هذه الصور صورة خامسة وهى ما كان التجريد فيها بالباء الداخلة على المنتزع منه ، وقد مثل لها في « الأسرار » بالمثا ل : « لقيت به أسدا » . وكل شواهد هذه الصور سُبق بها الجرجانى فذكرها من قبله : المبرد والفارسى وابن جنى ، بل والأعلم الشنتمرى شارح مثال سيبويه .

وبما قلناه ينتفى أن يكون هناك أى مبرر للجرجانى في عدم ذكره لمصطلح التجريد الذى تناول بعض شواهده فى ثلاثة مواضع من كتابيه : الأسرار ، والدلائل .

وللننظر الآن فيما قاله عبد القاهر فى شواهد التجريد التى تعرض لها فى هذين الكتابين ، بادئين بما ذكره منها فى « أسرار البلاغة » .

التجريد فى أسرار البلاغة :

جعل عبد القاهر موضوع هذا الكتاب : التشبيه ، والتمثيل ، والاستعارة ، وقد قدم بين يدى هذه الموضوعات الثلاث مقدمة عرض فى أثنائها للتجنيس ، والسجع ، والحشو ، مبطلا أن يكون الحسن فيها لمجرد اللفظ دون المعنى[1] .

وقد عرض عبد القاهر لأسلوب التجريد فى أثناء حديثه عن الفروق بين التشبيه البليغ والاستعارة .

قال رحمه الله : فإن قلت : فما تقول فى نحو قولهم : « لقيت به ، ورأيت منه ليثا » فإنه مما لا وجه لتسميته استعارة ، ألا تراهم قالوا : « لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد » فأتوا به معرفة على حده إذا قالوا : « احذر الأسد » ، وقد جاء على هذه الطريقة مالا يتصور فيه التشبيه ، فيظن أنه استعارة ، وهو قوله عز وجل : (لهم فيها دار الخلد) ، والمعنى ـ والله أعلم ـ أن النار هي دار الخلد ، وأنت تعلم أن لا معنى ههنا لأن يقال : « إن النار شبهت بدار الخلد » إذ ليس المعنى على تشبيه النار بشيء يسمى « دار الخلد» ، كما تقول فى زيد : « إنه مثل الأسد » ، ثم تقول : « هو الأسد » ، وإنما هو كقولك : « النار منزلهم ومسكنهم » . . وكذا قوله :

* يأبى الظُّلامةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ[2] *

المعنى على أنه « النوفل الزفر » وليس الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد ، فيقال إنه شبه الممدرح به ، وإنما هو كقولك : « هو الشجاع » و « هو السيد » و « هو النهاض بأعباء السيادة » وكذا قوله :

يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأسا بكف من بخلا[2]

لا يتصور فيه التشبيه ، وإنما المعنى : أنه ليس ببخيل .

---

(١) ينظر أسرار البلاغة ص ٦ وما بعدها .

(٢) سبق حديث المبرد عن هذين البيتين ، وعن المثال : « لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد » . أما الآية الكريمة فقد سبق كلام الأعلم ، وابن جنى عنها .

هذا وإنما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة ، إذا جرى بوجه على ما يدعى أنه مستعار له ، والاسم فى قولك : « لقيت به أسدا » أو « لقيني منه الأسد » لا يتصور جريه على المذكور بوجه ، لأنه ليس بخبر عنه ، ولا صفة له ، ولا حال ، وإنما هو نفسه مفعول « لقيت » وفاعل « لقيني » .

ثم قال : « فأما القضية الصحيحة وما يقع فى نفس المعارف ، ويوجبه نقد الصيرف ، فإن الأسد واقع على حقيقته »[1] .

* * *

كلام عبد القاهر هذا صريح الدلالة فى أن أسلوب التجريد على ضربين :

ضرب يلحق بالتشبيه ، ولا يصح إطلاق اسم الاستعارة عليه ، وهو ما كان مبنيا على التشبيه والقصد منه تشبيه شيء بشيء ، ولم يكن من قبيل تجريد الشيء من نفسه نحو : « لئن لقيت فلانا ليلقينك منه الأسد » ، أو « لقيني منه الأسد » أو « لقيت به أسدا » فإنه لتجريد « الأسد » أو « أسد » من زيد ، وأسد مشبه به لزيد لا عينه ، ففيه تشبيه لا استعارة ، والتشبيه يتصور في هذا بوضوح ويدرك بجلاء فعبد القاهر قد نفى عن هذا لضرب الاستعارة لا التشبيه ، معللا ذلك بأن الحكم على الاسم بالاستعارة إنما يكون إذا جرى المستعار بوجه على ما يدعى أنه مستعار له ، والاسم وهو الأسد فى قولنا : « لقيت به أسدا » أو « لقيني منه أسد » لايتصور جريه على المذكور وهو الضمير فى « به » و « منه » العائد على المشبه ، لأنه ليس بخبر عن هذا الاسم وهو « الأسد » ولا صفة له ، ولا حال ، وإنما هو مفعول « لقيت » وفاعل « لقيني » كما قال عبد القاهر .

فالأسد المشبه به فى هذين المثالين وما شابههما ليس مستعارا ، وإنما هو واقع على حقيقته ومستعمل فيما هو موضوع له ، كما فى قولنا : « زيد الأسد » عند من يقول إنه تشبيه وليس باستعارة وهم المحققون من البلاغيين .

---

(١) ينظر أسرار البلاغة ص ٣٣٥ ـ ٣٣٧ .

قال الخطيب : « فالاستعارة : ما تضمن تشبيه معناه بما وضع له . والمراد بمعناه : ما عنى به ، أى : ما استعمل فيه ، فلم يتناول ما استعمل فيما وضع له ، وإن تضمن التشبيه به ، نحو : « زيد أسد » ، و « رأيته أسدا » ونحو : « رأيت به أسدا » ، لا ستحالة تشبيه الشيء بنفسه »[1] .

قال العلامة السعد معلقا على هذا لاكلام : « قال المصنف : والاستعارة ما تضمن تشبيه معناه بما وضع له ، والمراد بمعناه : ما عنى باللفظ واستعمل اللفظ فيه، فعلى هذا لا يتناول قولنا : ما تضمن تشبيه معناه بما وضع له اللفظ واستعمل فيما وضع له وإن تضمن تشبيه شيء نحو « زيد أسد » و « رأيت زيدا أسدا » و « رأيت به أسدا » لأنه إذا كان معناه عين الموضوع له لم يصح تشبيه معناه بالمعنى الموضوع له ، لاستحالةتشبيه الشيء بنفسه »[2] .

وعبدالقاهر يرى أن كل اسم لا يكون خبرا عن المشبه به أي : المستعار له ، أو صفة ، أو حالا ، فهو مستعمل في معناه الحقيقي ، كما في الأمثلة الثلاثة السابقة للتجريد ، وكذلك ما كان واقعا فى غيرالتجريد ، كقول النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أو عدنى ولا قرار على زأرٍ من الأسد

فليس الأسد مستعارا للنعمان ، ولا النعمان مشبها به ، بل المراد بالأسد حقيقته ، والكلام من قبيل التمثيل الوارد على سبيل الاستعارة[3] . وآمر آخر لم يشر إليه عبد القاهر يخرج هذه الصورة من التجريد من باب الاستعارة وهو أن وجود طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على غير التشبيه ، وهذا الأسلوب مصرح فيه بذكر المشبه وهو « فلانا » في المثال الآخير ، والضمير فى « به » و « منه » العائد على المنتزع منه لفظ الأسد ، وبذكر المشبه به وهو الأسد ، والاستعارة لا

---

(١) الإيضاح جـ ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٢) المطول ص ٣٥٨ .

(٣) ينظر أسرار البلاغة ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

يجمع فيها بين الطرفين على وجه ينبىء عن التشبيه، وفي هذا الضرب من التجريد قد جمع بين الطرفين على هذا الوجه ، فلا يكون استعارة ، وإنما هو تشبيه .

* * *

وأما الضرب الآخر فهو عكس الأول ، وهو ما كان من قبيل تجريد الشيء من نفسه ، وهذا الضرب لا يصح إيقاع اسم التشبيه أو الاستعارة عليه، وإنما هو تجريد فحسب ، وهو ما جرى مجرى الآية الكريمة والبيتين بعدها ، فإنه في الآية لتجريد دارالخلد من جهنم ، وهي عين دار الخلد لا شبيهة بها ، فلا تشبيه فيه ، فمن مثل بذلك كأنه توهم أن في كل تجريد تشبيها ، وليس الأمر كذلك .

وإذا نفى التشبيه عن هذا الضرب فقد نفيت عنه الاستعارة ، حيث إنها مبنية على التشبيه ، والتشبيه أصلها .

وتعليق عبد القاهر على الآية الكريمة يفيد أنها من باب المبالغة في التهويل بأمر جهنم ووصفها بكونها محلا للخلود وكونها لا يعتريها ضعف ولا فتور ولا ينفك أهلها عن عذابها الدائم وشقائها المستمر[1] .

وكذلك الحال فى بيتي أعشى باهلة ، والأعشى ، فالتجريد فيهما من هذاالضرب وهو أن ينتزع من الشيء شيء آخر مساو له في صفاته للمبالغة فى ذلك الشيء ، حتى صار بحيث ينتزع منه شيء اخر مساو له فى صفاته .

وكلام عبدالقاهر عن «يأبى الظلامة منه النوفل الزفر » لا يخرج عما قلنا ، قال : المعنى : على أنه النوفل الزفر ، وليس الزفر باسم لجنس غير جنس الممدوح كالأسد . . » ، وكذلك بيت الأعشى وإن كان التجريد فيه ورادا على طريق الكناية . وقد سبق الكلام عنه .

* * *

(١) ينظر الإيضاح جـ ٢ ، ص٥١٢ ، والصبغ البديعي ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ .

وبهذا الحديث من عبد القاهر عن « التجريد » فى « أسرار البلاغة » يتبين لنا أنه يعد أول من فرق بين إحدى صور التجريد ـ وهي ما كان التجريد فيها مبنيا على التشبيه ـ والاستعارة ، فنفى أن تكون من قبيل الاستعارة ، ولم ينف أن تكون من قبيل التشبيه ، بل كلامه صريح في أنها تعد من التشبيه ، أي مطلق ا لتشبيه ، لا أنها تشبيه ضمنى أولغوى ، كما ذهب إلى ذلك الخطيب وشراح تلخيصه ، وإنما هي من صور التشبيه الاصطلاحي وسيأتى كلام له فى « دلائل » يؤيد ذلك يضع فيه هذه الصورة من صورالتجريد مع أبلغ صور التشبيه المعروفة وهى التشبيه البليغ وقد وافقه الخطيب وشراح تلخيصه على هذا الفرق الذى فرق به بين هذه الصورة والاستعارة ، وخالفوه فى عدها من التشبيه الاصطلاحي ، وأصروا على أنها ليست منه ، وأنها من قبيل التشبيه الضمنى أو اللغوي .

وقد سبق أن ذكرنا كلاما للخطيب والسعد فى هذه المسألة ، والآن نذكر كلاما آخر للسعد ، والسبكى له صلة بهذاالفرق الذي ذكره عبد القاهر بين التجريد والاستعارة ، أما كلامهما وكلام الخطيب عن الفرق بين التجريد والتشبيه فنرجىء الكلام عنه إلى موضعه من هذا الفصل . قال العلامة السعد : « ومن الناس من ذهب إلى أن نحو « زيد أسد » استعارة لإجرائه على المشبه مع حذف كلمة التشبيه . . « هذا إذا كان اسم المشبه به خبرا عن اسم المشبه أو في حكم الخبر ، وإن لم يكن كذلك نحو « رأيت بزيد أسدا » و « لقيني منه أسد » فلا يسمى استعارة بالاتفاق ، لأنه لم يجر اسم المشبه به على ما يدعى استعارته له ، لا باستعماله فيه كما في « لقيت أسدا » ولا بإثبات معناه له كما فى « زيد أسد » على ا ختلاف المذهبين »[1] .

وقال السبكي : « . . هذا إذا ذكرت الطرفين وقد جرى أحدهما على ا لآخر خبرا أو نعتا أو حالا ليتمكن تقدير الأداة بلا تكلف ، وأما إذا ذكرتهما لا على ذلك الوجه ، فإن لم يكن على وجه التجريد كان استعارة كقوله :

(١) المطول ص ٣٤٦ .

* قد زَرَّ أزرارَه على القمر [1] *

كما يأتي ، وإن ذكر على وجه التجريد الآتي كقولك : « لقيت بزيد بحرا » و « لقيت منه أسدا » فلا يسمى تشبيها مؤكدا ولا استعارة على المشهور ، أما عدم تسميته استعارة فلأنه لم يستعمل المشبه به منهما في الآخر كما هو شأن الاستعارة ، وإنما استعمل فى فرد آخر جرد من المشبه وأخرجه منه »[2] .

* * *

ويعد عبدالقاهر أيضا أول من قسم التجريد قسمين : ما كان مبنيا منه على التشبيه ، وما كان من قبيل تجريد الشيء من نفسه ، وتحت هذا القسم تدخل جميع صور التجريد الأخرى .

كما أن فائدة التجريد ونكتته العامة في كل صوره وهى المبالغة قد ألمح إليا عبد القاهر فى كلامه على الآية الكريمة وبيتى الشعر ، وإن لم يذكر كلمة « المبالغة » ولكن يفهم من كلامه عن هذه النصوص أنه يعنيها ، وبهذا يكون عبد القاهر قد سبق البلاغيين الذين نصوا عليها فى تعريف التجريد .

نعم ، يفهم من كلام الأعلم على مثال سيبويه ، والمبرد ، وأبى على الفارسى ، وابن جنى في حديثهم عن الشواهد التي عرضوا لها ، ما يدل على أنهم قد أرادوها وألمحوا إليها ، إلا أن كلام عبد القاهر كان أوضح فى ذلك من كلامهم . .

---

(١) عجز بيت نسبه صاحب معاهد التنصيص لأبي الحسن بن طباطبا العلوي ، وصدره :

* لا تعجبوا من بلى غلالته *

ينظر أسرار البلاغة ص ٣٠٥ ، ٣١٠ .

(٢) شروح التلخيص جـ ٣ ، ص ٤٧٦ .

التجريد فى دلائل الإعجـــاز :

إذا كان عبد القاهر قد تحدث فى « أسرار البلاغة » عن بعض صور التجريد ، وركز فى كلامه على بيان الفرق بين التجريد المبنى على ا لتشبيه وبين الاستعارة ، مثبتا أنه ليس من الاستعارة ، وإنما هو تشبيه فحسب ، ففي « دلائل الإعجاز » كان كلامه كله منصبا على هذه الصورة التي هي أبلغ صور التشبيه ، ذاهبا إلى أنها من حيث الأبلغية في منزلة التشبيه البليغ وهو ما حذف منه الوجه والأداة ، ولم يبق إلا المشبه والمشبه به ، بل جعل بعض شواهد هذه الصورة وهو ما كان التجريد فيها متضمنا للتشبيه ووارداً على طريق الكناية أبلغ من التشبيه البليغ .

وقد جاء ذكر التجريد المقصود منه التشبيه في موضعين من دلائل الإعجاز :

أحـدهمـا : في « فـصل في اللفظ يطلق والمراد بـه غـيـر ظاهره » ، ذكـر عبدالقاهر ذلك وهو بصدد الحديث في هذا الفصل عن « الاستعارة » و « التشبيه البليغ » وذكـر فرق من الفروق الكائنة بينهما قال : « وههنا أصل يجب ضبطه : وهو أن جعل المشبه المشبه به على ضربين :

أحدهما : أن تنزله منزلة الشيء تذكره بأمر قد ثبت له ، فأنت لا تحتاج إلى أن تعمل فى إثباته وتزجيته ، وذلك حيث تسقط ذكر المشبه من البين ، ولا تذكره بوجه من الوجوه ، كقولك « رأيت أسدا » .

والثاني : أن تجـعـل ذلك كـالأمـر الـذى يحـتـاج إلـى أن تعـمـل فى إثبـاته وتزجيته ، وذلك حيث تجـرى اسم المشبه به خبرا علـى المشبه ، فتقول : « زيد أسد ، وزيد هو الأسد » أو تجيء به على وجه يرجع إلى هذا كقولك : « إن لقيته لقيت به أسدا ، وإن لقيته ليلقينك منه الأسد » وتضع كلامك له .

وأما فى الأول فتخرجه مخرج ما لا يحتاج فيه إلى إثبات وتقرير . والقياس يقتضى أن يقال فى هذا الضرب ـ أعنى ما أنت تعمل فى إثباته وتزجيته ـ إنه تشبيه على حد المبالغة ، ويقتصر على هذاالقدر ، ولا يسمى « استعارة »[1] .

(١) دلائل الإعجاز ص ٦٨ .

في هذا الموضع من « الدلائل » قد سوى عبدالقاهر من حيث الأبلغية بين صورتين من صور التشبيه .

إحداهما : صورة التشبيه البليغ نحو « زيد أسد » أو « زيد هو الأسد » .

والثانيـة : صـورة التجريد الواقع فى صورة التشبيه ، ولم يشر إلى فرق بينهما ، بل هما سواء فى إفادة المبالغة ، وفى مقابلتهما الاستعارة . فعبدالقاهر لم ير أن هذه الصورة من صور التجريـد مجرد تشبيه وليس باستعـارة كمـا صنع ذلك فى « أسرارالبلاغـة » بل رأى أنها تشبيه على حد المبالغة ، مثلها فى إفادة المبالغة مثـل صورة التشبيه البليغ ، ونص كلامـه فى ذلك صريح لايقـبل التأويل وهـو : « والقياس أن يقال في هذا الضرب : إنه تشبيه على حد المبالغة » ، والمقصود بهذا الضرب ما ذكر فيه التشبيه البليغ والتجريد ، لا الأول فقط .

ومعلوم لنا ـ معشر الدارسين للبلاغـة ـ أن البلاغيين قد قسموا التشبيه بحسب القوة والضعف في المبالغة باعتبار ذكر أركانه كلها أوبعضها ، إلي ثمانية أقسام اطلقوا عليها مراتب التشبيه .

وقالوا : وأعلى مراتب التشبيـه فى قـوة المبالغـة : ما حذف وجهه وأداته فقط ، نحو : « زيد أسد » ، لأن حذف الوجه يفيد عموم وجه الشبه من حيث الظاهر ، وحذف الأداة يفيد إجراء المشبه به على المشبه بأنه هو نظرا إلى الظاهر أيضا ، فالتشبيه المشتمل على حذفهما جميعا هو في غاية القوة .

وعبد القاهر لم يكتف بجعل « إن لقيته لقيت به أسدا ، وإن لقيته ليلقينك منه الأسد » مثل « زيد أسد » في إفادة المبالغة فى التشبيه ، بل جعله أيضا مثل ما هو أبلغ منه وهو : « زيد هو الأسد » بتعريف المشبه به بأداة التعريف « أل » وتوسط ضـمير الفصل بين المسند إليه زيد والمسند وهو الأسد ، ولا شك أن هذين الأمرين أفادا تأكيد مشابهـة زيد للأسد ، فهو أبلغ من « زيد أسد » ، كما أن قولنا : « على هـو العالم » أوكـد من قـولنا : « على العالـم » و « على عالـم » مع إفادة الأول

والثاني للقصر ، وخلو الأخير من القصر والتوكيد ، وقد أطنبت في الحديث عن بيان ما يعنيه كلام عبد القاهر ، لأن الخطيب وشراح تلخيصه سيأتي انهم قد أخرجوا هذه الصورة من التجريد من التشبيه الاصطلاحي كلية ، وكأنهم ما قرأوا هذا الكلام لإمام البلاغيين ، ولا قرأوا ما قاله في الموضع الآخر من الدلائل وهو ما سنبدأ الحديث عنه .

وثانيهما : في فصل عقده فى أن الفصاحة والبلاغة للمعانى لا للألفاظ الدالة عليها ، فذكر أنه ليس شيء أبين وأوضح وأحرى أن يكشف الشبهة عن متأمله من التشبيه .

ثم أخذ فى الحديث عن دلالة مراتب التشبيه على أن الفصاحة والبلاغة للمعاني ، فقال : « فإنك تقول : « زيد كالأسد » أو « مثل الأسد » أو « شبيه بالأسد » فتجد ذلك كله تشبيها غُفلا ساذَجا ، ثم تقول : « كأن زيدا الأسد » فيكون تشبيها أيضا ، إلا أنك ترى بينه وبين الأول بونا بعيدا ، لأنك ترى له صورة خاصة ، وتجدك قد فخمت المعنى وزدت فيه ، بأن أفدت أنه من الشجاعة وشدة البطش وأن قلبه قلب لا يخامره الذعر ولا يدخله الروع ، بحيث يتوهم أنه الأسد بعينه » .

ثم تقول « لئن لقيته ليلقينك منه الأسد » فتجده قد أفاد هذه المبالغة[1] لكن في صورة أحسن ، وصفة أخص ، وذلك أنك تجعله في « كأن » يتوهم أنه الأسد ، وتجعله ههنا يُرى منه الأسد على القطع ، فيخرج الأمر عن حد التوهم إلى حد اليقين » .

ثم إن نظرت إلى قوله[2] :

(١) التي أفادتها « كأن » والتي وصفها بما وصفها به .

(٢) هو الفرزدق من أبيات قالها في ابنه لبطة ، وكان عاقا له ، يطيع امرأته ، وكانت تحرشه عليه .

أأن أرعشت كفا أبيك وأصبحت يداك يدى ليث فإنك غالبه

وجدته قد بدا لك فى صورة آنق وأحسن .

ثم إن نظرت إلي قول أرطاة بن سهية [1] :

إن تلقنى لا ترى غيرى بناظرة تنس السلاحُ وتعرف جبهة الأسد

وجدته قد فضل الجميع ، ورأيته قد أُخرج فى صورة غير تلك الصور كلها »[2]

* * *

وقبل أن نعقب على ما قاله عبدالقاهر فى مثالي التجريد ، نطرح سؤالا ثم ندع عبدالقاهر يجيب عنه . هذا السؤال هو : لماذا كان بين هاتين الصورتين من التشبيه ـ بين زيد كالأسد ، أو مثل الأسد ، أو شبيه بالأسد ، وبين كأن زيدا الأسد ـ هذا الفرق الشاسع الذى أبان عنه عبدالقاهر فى كلامه السابق ؟ يجيب الجرجانى عن هذا لسؤال فى فصل آخر قائلا : لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها .. فإذا قلت : فإذا أفادت هذه مالا تفيد تلك ، فليستا عبارتين عن معنى واحد ، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين .

قيل لك : إن قولنا : « المعنى » فى مثل هذا ، يراد به الغرض ، والذى أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه ، نحو أن تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول : « زيد كالأسد » ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول : « كأن زيدا الأسد » فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد ، إلا أنك تزيد فى معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأول ، وهي أن تجعله

(١) من شعر يقوله لشبيب بن البرصاء ، وكان قال : وددت أنيَّ جمعنى وابن الأمة أرطاة بن سهبة يومُ قتال فأشفى منه غيظي ، فبلغ ذلك أرطاة فقال : « إن تلقني » الشعر وأبياته في الأغاني جـ ١٣ ، ص ٣٤ طبعه دار الكتب .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٢٥ .

من فرط شجاعته وقوة قلبه ، وأنه لا يردعه شيء ، بحيث لا يتميز عن الأسد ، ولا يُقَصِّرُ عنه ، حتى يتوهم أنه أسد فى صورة آدمى . وإذا كان كذلك ، فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق إلا بما توخى في نظم اللفظ وترتيبه ، حيث قدم « الكاف » إلى صدر الكلام وركبت مع «أنَّ» ؟ وإذا لم يكن إلى الشك سبيل أن ذلك كان بالنظم ، فاجعله العبرة فى الكلام كله ، ورض نفسك على تفهم ذلك وتتبعه ، واجعل فيها أنك تزاول أمرا عظيما لا يقادر قدره ، وتدخل في بحرعميق لا يدرك قعره »[1] .

* * *

ننتقل بعد هذا إلى بيان : لماذا كان التجريد الواقع فى صورة التشبيه أبلغ من صورة التشبيه الصريح الحاصل بأداة التشبيه « كأن » ؟

الجواب : أن ذكر الأداة أيا كان نوعها يدل على المباينة بين الملحق والملحق به ، أي المشبه والمشبه به ، وحذفها يشعر بحسب الظاهر بجريان أحدهما على الآخر وصدقه عليه المقتضى للتماثل ، فيتقوى الاتحاد بينهما ، ولذلك يطلقون على التشبيه المحذوف الأداة « التشبيه المؤكد » وهو ما حذفت أداته ، أي تركت بالكلية وصارت نسيا منسيا ، بحيث لا تكون مقدرة فى نظم الكلام ، لأجل الإشعار بأن المشبه عين المشبه به ، بخلاف ما لو كانت الأداة مقدرة فلا يفيد الاتحاد ، فلا يكون التشبيه مؤكدا .

فمن أجل ذلك حكم عبدالقاهر على أن التجريد المبنى على ا لتشبيه أقوى وأبلغ مما يعد أقوى تشبيه وأبلغه من التشبيه الصريح الظاهر الأداة وهو ما كانت أداته « كأن » .

---

(١) دلائل ا لإعجاز ص ٢٥٨ .

ويقول البلاغيون أيضا : إن حذف الأداة أقوى من حذف وجه الشبه ، لأن حذف الأداة يجعل المشبه عين المشبه به من حيث الظاهر[1] .

وهذا شامل لهذه الصورة من صور التجريد ، ولصورة التشبيه البليغ الذى مثل له الجرجاني ببيت الفرزدق : « وأصبحت يداك يدى ليث » البيت .

* * *

وما ذكرته ـ ناقلا له عن البلاغيين ـ فى التشبيه المؤكد وسر تسميته بذلك ، وأن الأداة تترك فيه بالكلية وتصير نسيا منسيا ، بحيث لاتكون مقدرة في الكلام الخ ما ذكرت ، يرد ما فهمه فضيلة الدكتور أحمد موسى رحمه الله تعالى ، من كلام عبد القاهر عن التجريد المبنى على التشبيه فى « أسرار الباغة » وهو أن الجرجانى يرى أنه من التشبيه المضمر الأداة وهذا غير صحيح ، ولو أن عبدالقاهر يرى ذلك لما قال : « وذلك أنك تجعله فى « كأن » يتوهم أنه الأسد ، وتجعله ههنا ـ أي في التجريد المبنى على التشبيه ـ يُرى منه الأسد على القطع ، فيخرج الأمر عن حد التوهم إلى حد اليقين » لأن المقدر فى الكلام فى حكم المذكور .

ولو أن أداة التشبيه مقدرة مضمرة في نظم هذه الصورة من التجريد ما كان الأمر قد خرج عن حد التوهم إلى حد اليقين .

وهذا نص كلامه رحمه الله الذي استطرد اليه بعد ذكر ما قاله ابن الأثير فى هذا النوع من التجريد ، حيث يرى أنه تشبيه مضمر الأداة وليس بتجريد .

قال رحمه الله : « وحكمه ـ أي ابن الأثير ـ على هذا النوع بأنه من باب التشبيه المضمر يوضح لك ما فهمناه من كلام عبد القاهر »[2] .

أي : ما فهمه بأنه يقصد أن التشبيه فى هذاالنوع من التجريد من قبيل التشبيه المضمر الأداة ، كما ذهب الى ذلك ابن الأثير .

---

(٢) المطول ص ٣٤٦ .

(٢) الصبغ البديعي ص ٤٨٣ .

ولو أن أستاذنا الفاضل رحمه الله تعالى قد اطلع على هذا الذي قاله عبدالقاهر فى هذه الصورة وموازنته بنيها وبين التشبيه بالأداة « كأن » وما ذكره في الموضع السابق عنها ، في « دلائل الإعجاز » ، لكان قد راجع ما قال ، وعلم أن الصواب خلافه .

* * *

ونختم هذا التعقيب على ما قاله عبدالقاهر فى هذا الموضع من الدلائل بالكلام على بيتي الفرزدق وأرطاة بن سهية .

فنقول : إن بيت الفرزدق لم تحصل له المزية والفضل على التجريد الواقع في صرة التشبيه لمجرد اشتماله على تشبيه بليغ وهو « يداك يدى ليث » وإنما حصلت له المزية ووجب له الحسن ، لأنه أراد أن يثبت لابنه قوة الليث فبالغ فى وصفه بأن حذف الأداة ووجه الشبه ، وتركهما كلية ، وجعل يديه هي يدى الليث بعينه ، وليست شبيهة به .

فالفضل والحسن كله يرجع إلى ما توخاه الفرزدق فى نظم هذه الصورة البديعة من التشبيه البليغ ، ولو أنه قال : وأصبحت أسدا ، ما كان متصفا بشيء من ذلك .

أما بيت أرطاة بن سهية فقد تقدم فى فصل « فروق في الحال لها فضل تعلق بالبلاغة » وصف عبدالقاهر له حيث قال : « وقال أرطاة بن سهية ، وهو لطيف جدا .

إن تلقنى ، لا ترى غيرى بناظرة تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد

فقوله : « لا ترى » في موضع حال [1] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٠٩ .

وهو هنا يحكم عليه بأنه قد فضل الجميع ، وأنه قد أخرج فى صورة غير الصور السابقة ، وليس ذلك لمجرد اشتماله على التشبيه ، بل لتلك الصورة الخاصة التى ورد عليها نظم البيت ، وما توخاه الشاعر من حسن الصنعة ودقتها ، وكل جملة فى البيت فيها دقة نظم ، وحسن صنعة ، ولكن يهمنا الاشارة إلى موضع الشاهد وهى الجملة المعطوفة على جواب الشرط : «وتعرف جبهة الأسد» فلم يقل الشاعر : وتعرف أسدا، أو رجلا شبيها بالأسد، أو كأنه أسد، وإنما قال : « وتعرف جبهة الأسد»، وهذا هو موضع الهيبة والذعر والخوف من الأسد .

وقد اشتمل البيت على تجريد فقد انتزع الشاعر من نفسه جبهة أسد بعد تشبيه نفسه بالأسد ، وعلى تشبيه وهو تشبيه نفسه بالأسد في البأس والشجاعة والإقدام وقوة القلت وكل ما للأسد من قوة فهو له ، وكناية أيضا .

وجملة « لا ترى غيرى بناظرة » جملة وقعت حالا وهي قرينة التجريد ، وقلنا : إن الجملة فيها كناية حيث إنه عبر بالمزوم وهو جبهة الأسد ، وأراد لازمه وهو كونه أسدا [1] .

والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر الإيضاح جـ٢ ، ص ٥١٣ .

التجريد في مفتاح العلوم للسكاكي :

قسم السكاكي[1] كتابه « مفتاح العلوم » ثلاثة أقسام : الأول : في علم الصرف ، والثاني : في علم النحو ، والثالث : فى علمي المعاني والبيان ، ولكن الذى نال الحظ الأوفر من الشهرة هو القسم الثالث .

وهذا القسم الذى قد اشتمل على علمي المعاني والبيان رتبه على مقدمة لبيان حدى العلمين والغرض منهما ، وفصلين لضبط معا قدهما والكلام على مسائلهما ، ويعد السكاكي أول من أطلق اسم «علم المعانى » على المباحث التى بحثها فيه ، وأول من أطلق على مباحث : التشبيه والمجاز والكناية اسم « علم البيان » بل هو أول من فرق بين مباحث هذين العلمين على هذا لوجه من الضبط والتحديد .

وقد عرف السكاكى البلاغة بقوله : « هي بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها » .

ثم نوع الفصاحة إلى نوعين : نوع راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام عن التعقيد ، ونوع راجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية . . . الخ[2] .

ثم قال : وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها ، وأن الفصاحة بنوعيها فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها ، وهي قسمان .

قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ[3] .

---

(١) هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمدبن علي السكاكي الخوارزمي . ولد في خوازرم سنة ٥٥٠ هـ ، له مؤلفات أشهرها كتاب المفتاح ، وتوفى رحمه الله سنة ٦٢٦ هـ ، وقيل سنة ثلاث وعشرين ، وقيل سنة سبع وعشرين ينظر معجم الأدباء جـ٦ ، ص ٢٨٤٦ ، وتاريخ علوم البلاغة ص ١١٠ .

(٢) ينظر المفتاح ص ١٩٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

ثم ساق من ضروب البديع المعنوية عشرين ضربا سوقا موجزا اكتفى فيه ، بتحديدها وإردافها بمثال واحد أو أكثر ، دون أن يشير كما أشار عبدالقاهر وأبو هلال مثلا إلى أسرار الأساليبُ ، وتبيين جمالها وروعتها[1] .

ثم ذكر وجوه وأضرب القسم الثاني، وهي خمسة وجوه لا غير ، وفي أثناء الحديث عنهاحدد تلك الألوان وساق شواهدها وقد ختم هذا القسم بقوله : « وأصل الحسن فى جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعانى ، لا أن تكون المعانى لها توابع ، أعنى أن لا تكون متكلفة [2]، وقد نظرت فى الوجوه العشرين التي ترجع إلى تحسين المعنى فلم أجد « التجريد » من بينها ، ولا ذكر له فى موضع آخر من كتابه ، وبذلك يكون صنيع السكاكى هو نفس صنيع عبد القاهر ، حيث لم يذكر أي منهما هذا المصطلح ولم يجربه قلمه ، والسكاكى وإن كان مثله مثل عبدالقاهر في أنه قد ذكر أمثلة للتجريد الواقع فى صورة التشبيه لكن لم يطلق عليها هذا المصطلح ، بل ذكرها مع أمثلة أخرى للتشبيه البليغ ، وهو بصدد الحديث عن أن فقد كلمة التشبيه لا تؤثر إلا فى الظاهر .

ثمن المعلوم لمن درس التشبيه فى « المفتاح » أن السكاكى لا يشترط لتحقق التشبيه الاصطلاحي ذكر كلمة التشبيه لا لفظا ولا تقديرا ، عكس ما ذهب إليه صاحب « التلخيص » فإنه وإن لم ينص عليها فى تعريفه ، لكنه يريدها .

قال : لا يخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفين مشبها ومشبها به واشتراكا بينهما من وجه وافتراقا من آخر[3] .

وقال : واعلم أن ليس من الواجب فى التشبيه ذكر كلمة التشبيه ، بل إذا قلت : « زيد أسد » واكتفيت بذكر الطرفين عد تشبيها ، مثله إذا قلت : « كأن زيدا الأسد » اللهم إلا فى كونها أبلغ[4] .

(١) المصدر السابق ص ٢٠٠ـ٢٠٢ .
(٢) ينظر المفتاح ص ٢٠٢ـ٢٠٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٥٧ .
(٤) المصدر السابق ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

ذكرنا هذا الكلام لأننا نرى أن عدم اشتراط السكاكى وجوب ذكر الأداة هو أحد الأسباب التي جعلته يخالف الخطيب وشراح تلخيصه ، فيصرح بأن نحو « لقيت بزيد أسدا » و « لقيني منه أسد » من قبيل التشبيه الاصطلاحي .

يوضح ذلك قوله : « وإذا عرفت أن وجود طرفي التشبيه يمنع عن حمل الكلام على غير التشبيه عرفت أن فقد كلمة التشبيه لا تؤثر إلا في الظاهر ، وعرفت أن نحو : « رأيت بفلان أسدا » ، و « لقيني منه أسد » وهو أسد في صورة إنسان ، وإذا نظرت إليه لم تر إلا أسدا » من قبي التشبيه الاصطلاحي .

يوضح ذلك قوله : وإذا عرفت أن وجود طرفي التشبيه يمنع عن حمل الكالم على غير التشبيه عرفت أن فقد كلمة التشبيه لا تؤثر إلا في ا لظاهر ، وعرفت أن نحو : « رأيت بفلان أسدا » ، و « لقيني منه أسد » وهو أسد في صورة إنسان ، وإذا نظرت إليه لم تر إلا أسدا ، وإن رأيته عرفت جبهة الأسد[1] ، و « إن لقيته ليلقينك منه الأسد » وإن أردت أسدا فعليك بفلان ، وإنما هو أسد وليس هو آدميا بل هو أسد .

كل ذلك تشبيهات ، لا فرق إلا في شأن المبالغة[2] .

* * *

والأمثلة الأربع الواردة في كلام السكاكى هذا وهي : « رأيت بفلان أسدا » و « لقيني منه أسد » و « إن رأيته عرفت جبهة الأسد » ، و « لئن لقيته ليلقينك منه الأسد » كلها أمثلة لصورة واحدة من صور التجريد الكثيرة ، وهي ما كان التجريد فيها واقعا في صورة التشبيه . وصاحب المفتاح يرى أن هذه الصورة من قبيل التشبيه الاصطلاحي ، كما ذهب إلى ذلك قبله الجرجاني .

---

(١) يشير إلى بيت أرطأة بن سهية الذي تقدم كلام عبد القاهر عنه وهو :

إن تلقني لا ترى غيري بناظرة تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد

(٢) المفتاح ص ١٦٨ .

قال صاحب المطول وهو يشرح تعريف الخطيب للتشبيه بأنه هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر فى معنى . والمراد ههنا ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية والاستعارة بالكناية والتجريد .

قال : نحو « لقيت بزيد أسدا ، ولقيني منه أسد » ، على ما سيجيء في علم البديع . . خلافا لصاحب المفتاح في التجريد فإنه صرح بأن نحو « رأيت بفلان أسدا ، ولقيني منه أسد » من قبيل التشبيه »[1]

* * *

وقد أحسن السكاكى صنعا عندما عد هذه الصورة من صور التجريد من قبيل التشبيه الاصطلاحي ، كما ذهب إلى ذلك قبله الإمام عبدالقاهر .

ويتبين لنا من كلام السكاكى السابق ذكره أنه قد سوى بين أمثلة هذه الصورة من التجريد ، وأمثلة لأنواع هي من أبلغ أنواع التشبيه .

فالمثال « وهو أسد في صورة إنسان » من قبيل ما حمل فيه اسم المشبه به على المشبه ، إلا أنه وصف بما لا يلائم المشبه كقولهم : هو بدر يسكن الأرض ، وشمس لا تغيب ، ومثل ذلك التشبيه لا يحسن فيه تقدير أداة التشبيه إلا بتغيير صورته ، كأن يقال : هو كالأسد إلا أنه في صورة الإنسان ، وهو كالبدر إلا أنه يسكن الأرض[2] .

والمثال : « وإذا نظرت إليه لم تر إلا الأسد » قريب من « هو أسد » ويمتاز عنه بالتصريح بالمنفى ، وبأن المنفى فى « إنما هو أسد » يحتمل أن يكون شيئا غير الآدمي من الحيوانات التي توصف بالجرأة والمثالان الأخيران من أمثلة التجريد الأربع وهما : « وإن رأيته عرفت جبهة الأسد » التجريد فيه بدون حرف ، وقد

---

(١) ينظر المطول ص ٣١٠ ، ٣١١ .

(٢) ينظر أسرار البلاغة ص ٣٢٩ وما بعدها ، والإيضاح جـ ٢ ، ص ٤١١ ومابعدها .

اشتمل على تجريد وتشبيه وكناية كما مر ، وهو يدل على لزوم الأسدية للمنتزع منه ، وتقدير أداة التشبيه فيه بعيد [1] .

أما « لئن لقيته ليلقينك منه الأسد » فهو تجريد فيه دلالة أيضا على لزوم الأسدية للمنتزع منه ، أي فيه تشبيه وتجريد كالمثال السابق .

* * *

وقول السكاكى آخر كلامه السابق : « كل ذلك تشبيهات لا فرق إلا في شأن المبالغة » يريد به أنه لا فرق بين هذه الأمثلة من التشبيهات وبين التشبيه الصريح المظهر الأداة نحو « هو كالأسد » إلا في شأن المبالغة ، فإنها أبلغ منه ، أو يريد : أنه لا فرق بين هذه الأمثلة في أنفسها إلا أن يكون بعضها أبلغ من بعض .

وإنما لم يندرج شيء منها عنده في الاستعارة لاقتضائها كون المشبه به المذكور في الكلام مستعملا في غير معناه الحقيقي ، وليس الأمر في شيء من هذه الأمثلة كذلك ، فهي من باب التشبيه ، إذ لا واسطة بينه وبين الاستعارة عند السكاكي . ونهجه في ذلك هو نفس نهج الجرجاني في حديثه عن التجريد والفرق بين هذه الصورة وبين الاستعارة في « أسرار البلاغة » .

وقد ذهب سعد الدين التفتازاني إلى أن التجريد الواقع في صورة التشبيه واسطة بين الاستعارة والتشبيه . فبعد أن بين الفرق بين نحو « لقيني أسد يرمى » و « لقيت في الحمام أسدا » وبين نحو « زيد أسد » أو « أسد » في مقام الإخبار عن زيد ، حيث يعد الأول استعارة والثاني تشبيها قال : « هذا إذا كان اسم المشبه به خبرا عن اسم المشبه أو في حكم الخبر ، وإن لم يكن كذلك نحو « رأيت بزيد أسدا » و « لقيني منه أسد » فلا يسمى استعارة بالاتفاق ، لأنه لم يجر اسم المشبه

---

(١) ينظر المصباح في شرح المفتاح للسيد الشريف الجرجاني جـ ٢ ، ص ٧٢٠ ، ٧٢١ . وهو رسالة دكتوراة تحقيق د/ فريد النكلاوي مخطوط بكلية اللغة العربية .

به على ما يدعى استعارته له ، لا باستعماله فيه كما في « لقيت أسدا » ولا بإثبات معناه له كما في « زيد أسد » على اختلاف المذهبين ولا يسمى تشبيها أيضا[1] لأن الإتيان باسم المشبه به ليس لإثبات التشبيه ، إذ لم تقصد الدلالة على المشاركة ، وإنما التشبيه مكنون في الضمير لا يظهر إلا بعد تأمل ، خلافا للسكاكي ، فإنه سمى مثل ذلك تشبيها ، وهذا الخلاف أيضا لفظي »[2]

* * *

وقد كان عبدالقاهر والسكاكي موفقين ومصيبين في عد هذه الصورة من صور التجريد لا مجرد تشبيه فحسب ، بل في عداد أبلغ أنواع التشبيه ، وبذلك تكون أبلغ صور التجريد من أبلغ أنواع التشبيه . قال الإمام السيوطي في ختام كلامه على صور التجريد ـ وقد جاءت هذه الصورة الثانية من حيث الترتيب ـ :

*** وأبلغ الأقسام ما قد ثنيا ***

قال العلامة المرشدي : وأبلغ الأقسام المذكورة للتجريد ما قد ثنيا ، أي ما جعل ثانيا ، وهو التجريد المبني على التشبيه الممثل له في النظم بقوله : « وإن سألت أحمد لتسألن بحرابه مندفقا »[3] .

---

(١) أي اصطلاحيا ، وإن كان تشبيها ضمنيا أو لغويا عنده وعند الخطيب ، كما سيأتي الكلام على ذلك .

(٢) ينظر المطول ص ٣٤٦ .

(٣) شرح عقود الجمان جـ ٢ ص ١١٤ .

التجريد فى المثل السائر لابن الأثير :

إذا كان أبو الفتح عثمان بن جنى يعد أول لغوى ونحوى يفرد للتجريد بابا خاصا به في كتابه « الخصائص » فإن ضياء الدين بن الأثير[1] يعد أول ناقد وبلاغى يعقد لهذا الفن مبحثا خاصا به في كتابه « المثل السائر » . ففي مبحث المقالة الثانية في الصناعة المعنوية جعل النوع الثالث من أنواع هذه المقالة في التجريد . وجاء هذا النوع عنده في الترتيب بعد الاستعارة والتشبيه ، وهذا يدل على ما لهذا الأسلوب من عناية واهتمام عند ابن الأثير ، وهذا ما نراه فيما صدر به حديثه عنه حيث قال : « النوع الثالث » في التجريد وهذا اسم كنت سمعته فقال القائل : التجريد في الكلام حسن ثم سكت ، فسألته عن حقيقته ، فقال : كذا سمعت ! ولم يزد شيئا . فأنعمت حينئذ نظري فى هذا النوع من الكلام[2] .

ويعد ابن الأثير أيضا أول من درس هذا الفن دراسة علمية قائمة على التحديد والتعريف والتقسيم ، وهذا ما لم نجده عند أحد من الذين تعرضوا للتجريد قبله .

ومن الإطناب في حديثه عن هذا النوع من الكلام نستنتج أنه كان مثل أبى على الفارسي وابن جنى في الشغف والولوع بهذه الطريقة من طرق الكلام البليغ .

ومع اهتمامنا بإبراز ما أضافه ابن الأثير على من تقدمه ممن تعرضوا لهذا الفن ، ورصد تطور مصطلح التجريد على يديه ، حيث كانت دراسته لهذا الأسلوب هي بداية انطلاق هذا المصطلح وانتقاله إلى كتب البلاغيين فإن تناولنا

---

(١) هو أبو الفتح نصر الدين بن محمدبن محمد الشيباني الجزرى الملقب بضياء الدين ، ولد فى جزيرة ابن عمر بالموصل سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وتوفى رحمه اله سنة سبع وثلاثين وستمائة هجرية .

(٢) ينظر المثل السائر جـ ٢ ، ص ١٥٩ .

ودراستنا للتجريد فى « المثل السائر » سيكون مختلفا عن طريقة دراستنا للتجريد عند أهل العلم قبله ، إذ سنناقشه فى تصوره لحقيقة التجريد ، وفيما نسبه إلى أبى على الفارسى من كلام فى هذاالفن ، وفيما ناقشه فيه .

إذا ستكون دراستنا للتجريد في المثل السائر دراسة نقدية نذكر فيها ماله وما عليه ، والله الموفق للصواب .

حد التجريد وفائدته :

حد ابن الأثير التجريد بقوله : فأما حد التجريد فإنه « إخلاص الخطاب لغيرك ، وأنت تريد بـه نفسك، لا المخاطب نفسه » ، لأن أصـله فى وضع اللغـة « من جردت السيف » إذا نزعته من غمده ، و « جردت فلانا » إذا نزعت ثيابه . ومن ها هنا قال صلى ا لله عليه وسلم : « لا مد ولا تجريد » وذلك فى ا لنهى عند إقامة الحد أن يمد صاحبه على الأرض ، وأن تجرد عنه ثيابه ، وقد نقل هذا المعنى إلى نوع من أنواع علم البيان .

وقد تأملته فوجدت له فائدتين إحداهما أبلغ من الأخرى :

فـالأولى : طلب التـوسع فى الكلام ، فـإنه إذا كـان ظاهره خطابا لغيـرك ، وباطنه خطابا لنفسك ، فذلك من باب التوسع . .

والفـائدة الثـانيـة : وهي الأبلغ ، وذاك أنه يتـمكن المخـاطـب من إجـراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه ، إذ يكون مخاطبا بها غيره ، ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليه [1] .

* * *

ما ذكره ابن الأثير فى المعنى اللغوي لكلمة التجريد كلام حسن ، هو كذلك في اللغة ، و أما الحد الاصطلاحى للتجريد بأنه « إخلاص الخطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك ، لا المخاطب نفسه » فقد ضيق به واسعا ، بل خنق به هذا الفن ، حتى كاد يزهق به روحه ، لذلك فهو غير مسلم له ، وحصر حقيقة التجريد فيما ذكره أمر ابتدعه هو ، لم يقل به أحد من أهل العلم قبله ، إذ أن فن التجريد أوسع دائرة مما ذكره .

وحد ابن الأثير هذا قـد أخرج أبلغ صور التجريد منه ، ولم يبق إلا صورة واحدة من صوره الكثيرة التي ذكرها له المبرد والفارسى وابن جنى ، وهذه الصورة

(١) المثل السائر جـ٢ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

هي « مخاطبة الإنسان نفسه » وذلك بأن ينتزع من نفسه شخصا آخر مثله في الصفة التي سيق لها الكلام ثم يخاطبه .

وهذه الصورة هي أدنى صور التجريد من حيث المبالغة التي هي نكتة هذا الفن ، حتى قال السبكى متسائلا : فإن قيل : أينُ المبالغة فى التجريد بخطاب الإنسان نفسه ؟ قلت : كأنه يجعل نفسه لكمال الإدراك كأن فيها نفسا أخرى [1] .

ولأن المبالغة التي في هذه الصورة ليست فى درجة المبالغة فى صور التجريد الأخرى جعلها الخطيب آخر صور التجريد ، وبها ختم كلامه على هذا الفن . وفي هذا إشارة إلى أن ما ذكره قبلها من الصور أكثر مبالغة . وهو كذلك . وبناء على هذا التعريف الغريب للتجريد فإن الصور الأخرى له سواء ما كان منها بواسطة حرف أو بدون حرف ، ومنها أبلغ صوره ـ وهي التي اقتصر عليها كلام الشيخين الجليلين : الجرجاني والسكاكي ـ فهي ليست من التجريد عند ابن الأثير ، وأحسب أنه لم يقف إلا على هذه الصورة التي خصها باسم التجريد ، وعلى صورة أخرى وهي ما كان التجريد فيها واقعا على صورة التشبيه ، وسيأتي الحديث عن مناقشة ابن الأثير لأبي على في جعله هذه الصورة من التجريد ، وكانت حصيلة هذه المناقشة إخراجها من فن التجريد إلى فن التشبيه ، لأن حقيقة التجريد ليست إلا ما يراها ابن الأثير . وقوله معللا هذا التعريف الاصطلاحي للتجريد : « لأن أصله فى وضع اللغة من جردت السيف . . » الخ . يدل على أنه يرى ـ متوهما ـ أن هذا التعريف الذى لا يشمل إلا صورة واحدة من صور التجريد هو ما يدل عليه معنى التجريد فى اللغة ، وليس الأمر كما توهمه ، بل كل صورة فيها هذا المعنى وهو التجريد والانتزاع وسيأتي بيان ذلك قريبا إن شاء الله تعالى .

---

(١) ينظر شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٥٧ .

* * *

أما الفائدتان اللتان ذكرهما للتجريد بمفهومه هو فشيء لا غبار عليه ولكنهما مختصتان بهذه الصورة التي قصر التجريد عليها ، ومع أنه قد ذكر هاتين الفائدتين عقب تعريفه التجريد وقبل تقسيمه ـ وهذا يدل على أنهما للقسمين جميعا ـ فإننا نجده قد خصهما بالقسم الأول منه وهو التجريد المحض ، وهذا ما نراه في تحليله لشواهد القسمين ، حيث أشار إلى الفائدتين في تحليل شواهد القسم الأول ، دون شواهد القسم الثاني ، وهو التجريد غير المحض .

وسنذكر ذلك في التعقيب على أقسام التجريد وشواهده .

أقسام التجريد وشواهدها :

قال ابن الأثير عقب كلامه السابق متحدثا عن قسمى التجريد والفائدتين اللتين ذكرهما له :

وعلى هذا فإن التجريد ينقسم قسمين :

أحدهما : تجريد محض والآخر : تجريد غير محض .

فالأول ـ وهو المحض ـ أن تأتي بكلام هو خطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك ، وذلك كقول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بالحيص بيص[1] في مطلع قصيدة له :

إلام يـــراك المجـــد فـــي زيٍّ شاعـر ... وقد نحلت شوقـــا فروع المنابـر

كتمتَ بعيب الشعر حلمـا وحكمـة ... ببعضهما ينقاد صعب المفاخـــر

أمـــا وأبيك الخير إنـــك فارس المقال ... ومحيـــى الدارســـات الغوابـــر

وإنـــك أعييـــت المسامـــع والنهـــى ... بقولك عما في بطـون الدفاتـــر

فهذا من محاسن التجريد ، ألا ترى أنه أجرى الخطاب على غيره ، وهو يريد نفسه ، كي يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة ، وعدّ ما عده من الفضائل التائهة .

وكل ما يجيء من هذا القبيل فهو التجريد المحض .

وأما ما قصد به التوسع خاصة فكقول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة[2] :

---

(١) هو سعد بن محمدبن سعد التميمي ، أبو الفوارس ، الملقب شهاب الدين ، نشأ فقيها وغلب عليه الأدب ونظم الشعر ، وكان يلبس زي البادية ، ويتقلد سيفا ، ولا يتحدث إلا بالعربية الفصحى ، توفى سنة ٥٧٤ هـ ببغداد .

(٢) الحماسة بشرح التبريزي ج ٣ ، ص ١١٣ .

حننت إلى ريَّا ونفسُك باعدت مزارَك من ريا وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتي الأمر طائعا وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا

وقد ورد بعد هذين البيتين ما يدل على أن المراد بالتجريد فيهما التوسع لأنه قال :

وأذكـــر أيام الصبا ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدَّعا

بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطافا والمتربعا

فانتقل من الخطاب التجريدي إلى خطاب النفس ، ولو استمر على الحالة الأولى لما قضى عليه بالتوسع ، وإنما كان يقضى عليه بالتجريد البليغ الذى هو الطرف الآخر . . .

وعلى هذا ورد قول أبى الطيب المتنبي[1] :

لا خيلَ عندك تُهديا ولا مـــال فليُسعـد النطقُ إن لم تُسعـد الحالُ

واجز الأمير الذى نُعماه فاجئةٌ بغير قـول ونُعمـى القـوم أقـوالُ

وليس فى التجريد المذكور فى هاتين البيتين ما يدل على وصف نفسه ولا على تزكيتها بالمديح كما ورد فى الأبيات الرائية المتقدم ذكرها ، وإنما هو توسع لا غير .

وأما القسم الثاني : وهو غير المحض ، فإنه خطاب لنفسك لا لغيرك ، ولئن كان بين النفس والبدن فرق إلا أنهما كأنهما شيء واحد ، لعلاقة أحدهما بالآخر .

وبين هذا القسم والذى قبله فرق ظاهر ، وذاك أولى بأن يسمى تجريدا ، لأن التجريد لائق به ، وهذا هو نصف تجريد ، لأنك لم تجرد به عن نفسك شيئا ، وإنما خاطبت نفسك بنفسك ، كأنك فصلتها عنك ، وهي منك .

---

(١) مطلع قصيدة له في مدح أبي شجاع فاتك . ديوان المتنبى بشرح الواحدي جـ ٢ ، ص ٧٠٤ .

فمما جاء منه قول عمرو بن الإطنابة :

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

وكذلك قول الآخر [1] :

أقول للنفس تأساءً وتعزيةً إحدى يدَيَّ أصابتنى ولم ترد

وليس فى هذا ما يصلح أن يكون خطابا لغيرك كالأول ، وإنما المخاطب هو المخاطب بعينه ، وليس ثَمَّ شىء خارج عنه [2] .

تعقيب :

أعقب على هذا الكلام الذى تحدث فيه ابن الأثير عن تعريف التجريد وأقسامه وشواهده وفوائده بأمور ستة أجملها فيما يلى :

الأول : أن التعريف الذى عرف به التجريد الشامل لقسميه : المحض وغير المحض ، لا يشمل إلا القسم الأول وهو التجريد المحض .

بيان ذلك : أنه عرف التجريد بقوله : « هو إخلاص الخطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك ، لا المخاطب نفسه » والمفترض أن يكون هذا التعريف شاملا للقسمين جميعا ، لأنه قال : « فأما التجريد » ثم قال : « وعلى هذا فإن التجريد ينقسم قسمين » .

فما دام قد عرفه قبل تقسيمه فلا بد أن يكون الحد جامعا وشاملا للقسمين ، ثم عرف التجريد المحض بقوله : « أن تأتى بكلام هو خطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك » وهذا حاصل التعريف الذى عرف به مطلق التجريد .

---

(١) بيتان قائلهما أعرابي قتل أخوه ابنا له ، فقدم إليه ليقتاد منه فألقى السيف من يده ، وأنشأ يقول هذين البيتين ، والبيت الذى بعده هو :

كلاهما خلف من فقد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدى

ديوان الحماسة بشرح التبريزي جـ ١ ، ص ١١٠ .

(٢) ينظر المثل السائر جـ ٢ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٤ .

وعرف بعد ذلك القسم الثاني وهو التجريد غير المحض بقوله : « إنه خطاب لنفسك لا لغيرك » .

وكلامه عن الفرق بين القسمين يوضح هذا حيث قال : « وبين هذا القسم والذي قبله فرق ظاهر ، وذاك أولى بأن يسمى تجريدا ، لأن التجريد لائق به ، وهذا هو نصف تجريد ، لأنك لم تجرد به عن نفسك شيئا ، وإنما خاطبت نفسك بنفسك ، كأنك فصلتها عنك وهي منك » .

فالقسم الأول هو الأولى بأن يسمى تجريدا ، لأن حد التجريد ينطبق عليه دون ا لثاني . وأما الثاني فإنه خارج عن حد التجريد ، وليس في حد التجريد ما يشير إليه .

وبذلك يكون حد التجريد ا لذى ذكره ابن الأثير فاسدا ، لأن الحد ينبغى أن يكون شاملا وجامعا لكل أقسام المعرف وأجزائه .

الثاني : أن كلامه عن الفائدتين اللتين ذكرهما للتجريد يدل على أنهما للتجريد بقسميه المحض وغير المحض ، حيث قال : وقد تأملته فوجدت له فائدتين إحداهما أبلغ من الأخرى » .

أي تأملت التجريد مطلقا محضا أو غير محض .

ويدل على ذلك أيضا ذكره هاتين الفائدتين عقب ذكر حد التجريد ، وقبل تقسيمه .

وهذا مالم يتحقق ، إذ كلامه فى تحليل شواهد التجريد المحض قاطع على أن الفائدتين إنما هما لهذا التجريد دون قسيمه ، وهو التجريد غير المحض بيان ذلك : أن ابن الأثير عقب على أبيات الحيص بيص بقوله : « ألا ترى أنه أجرى الخطاب على غيره ، وهو يريد نفسه ، كي يتمكن من ذكر ما ذكره . . وكل ما يجيء من هذا القبيل فهو التجريد المحض » .

وهذه الفائدة التى رأى أنها حاصلة فى تلك الأبيات هى الفائدة الثانية ، وهى التي وصفها بأنها أبلغ من الأولى ، وهي : « أن يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة على نفسه . . » وبكلامه هذا يكون قد قصر هذه الفائدة على التجريد المحض .

أما الفائدة الأولى وهي « طلب التوسع فى الكلام » فقد خص بها بيتي الصمة بن عبد الله القشيرى ، وبيتى أبى الطيب المتنبى ، وهما شاهدان للتجريد المحض أيضا .

وهذه الفائدة تكون إذا انتقل المتكلم من الخطاب التجريدي إلى خطاب النفس كما فعل الشاعران .

أما الثانية وهى أن يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة على نفسه فيشترط فيها ألا ينتقل الشاعر من الخطاب التجريدى إلى خطاب النفس ، بل يستمر على ما هو عليه من الخطاب التجريدي .

وقد وصف ابن الأثيرالتجريد المشتمل على تلك الفائدة ـ وهو التجريد المحض ـ بالتجريد البليغ .

أما القسم الثانى وهو التجريد غير المحض الذى رأى أنه نصف تجريد ، فلم يذكر فى تحليل شواهده أيا من الفائدتين ، وهذا ـ مع ما تقدم ـ يدل على أن الفائدتين للقسم الأول وهو التجريد المحض .

وهذا خلل يجعل الكلام فاسدا ، فقد جعل أولا الفائدتين للتجريد بقسميه ، ثم خص بعد ذلك أحد القسمين بهما دون القسم الآخر .

الثالث : أن ابن الأثير قد عرف التجريد غير المحض بقوله : « إنه خطاب لنفسك لا لغيرك » وذكر أنه نصف تجريد معللا ذلك بقوله : « لأنك لم تجرد عن نفسك شيئا ، وإنما خاطبت نفسك بنفسك ، كأنك فصلتها عنك وهي منك »

وقال : « وليس فى ها يصلح أن يكون خطابا لغيرك كالأول ، وإنما المخاطب هو المخاطب بعينه ، وليس ثم شيء خارج عنه » .

وهذا كلام فاسد ، فإن التجريد فى هذاالقسم هو نفس التجريد فى القسم الأول ، كل ما بينهما من فرق هو أن المتكلم فى التجريد المحض يجرد من نفسه شخصا وذاتا أخرى ثم يخاطبها ، كما في أمثلة هذا النوع من التجريد ، وفي الثاني يجرد من نفسه نفسا أخرى ثم يخاطبها ، ذاكرا لها بلفظ « النفس » والنفس هي الذات والشخص نفسه ، إلا أن الأول يعبر عن الذات والشخص الذى انتزعه من نفسه ثم خاطبه بضمير الخطاب : الكاف أو أنت ، أو الضمير والاسم الظاهر معا كما في قول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

والثاني يعبر عن الذات والشخص الذى انتزعه من نفسه ثم خاطبه كما يخاطب غيره ، بلفظ « النفس » لا بضمير الخطاب ، إذ لا فرق بينهما إلا من حيث اللفظ فحسب ، فهما صورة واحدة وقسم واحد من صور وأقسام التجريد عند النحويين واللغويين والبلاغيين بدءً من أبى على الفارسى وابن جنى ، لا قسمان كما هو الحال عند ابن الأثير .

وقول ابن الأثير : « لأنك لم تجرد به عن نفسك شيئا ، وإنما خاطبت نفسك بنفسك ، كأنك فصلتها عنك وهي منك » كلام يدفع بعضه بعضا ، ولا وجه له ، بل المتكلم بهذا النوع من التجريد ينتزع ويجرد من نفسه نفسا أخرى هى عين الأولى لا غيرها ، ثم يخاطبها كما يخاطب شخصا آخر غيره .

الرابع : أن ابن الأثير قد قصر التجريد على مخاطبة الإنسان نفسه وهذه الصورة من صوره إضافة إلى أنها أقل صور التجريد حظا من المعنى البلاغي الذى لهذا الفن من الكلام وهو المبالغة ، فإنها مختلف فيها فجمهور البلاغيين يعدها من التجريد ، والزمخشرى والسكاكى يعدانها من الالتفات .

أما الصور الأخرى التي أخرجها ابن الأثير من التجريد فلا خلاف فى أنها من التجريد .

قال السكاكى : « نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة لا يختص المسند إليه ولا هذا القدر ، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر ، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعانى . . . قال ربيعة بن مقروم :

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا وأخلفتك ابنة الحر المواعيدا

فالتفت كما ترى حيث لم يقل : وأخلفتني[1] .

وقال الزمخشرى : وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات فى ثلاثة أبيات :

تطاول ليلك بالأثمَد ونام الخلى ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد

وذلك من نبإ جاءنى وخبرته عن أبى الأسود[2]

الخامس : أن الفائدتين اللتين اضطرب حديث ابن الأثير عنهما ، لم يشر إليهما أحد ممن تعرض لهذا الفن ، اللهم إلا ابن النقيب فى مقدمته ، والعلوى فى طرازه اللذان نقلا ما قاله ابن الأثير في التجريد ، بل ذكروا فوائد أخرى لهذه الصورة هى أبلغ من فائدتي ابن الأثير .

ففي قراءة حمزة والكسائي : (قال اعْلَمْ أن الله على كل شيء قدير) .

قال المفسرون : إن فائدة التجريد على هذه القراءة هي التبكيت والتوبيخ من المار لنفسه على ما صدر من طلب ما طلب .

وقال البلاغيون في قول امرىء القيس السَّابق ذكره : إنه خاطب نفسه على جهة التجريد موبخا لها ، فإن نفسه نفس ملك ، فكان من حقها الصبر وعدم الجزع .

---

(١) ينظر المفتاح ص ٩٥ .

(٢) الكشاف جـ ١ ، ص ١٤ ، وينظر المفتاح ص ٩٦ـ٩٨ .

ومن نكت هذه الصورة من التجريد أن يقصد المتلكم نصح نفسه ، كما فى قول عمرو بن الإطنابة الذى مثل به ابن الأثير للتجريد غير المحض وهو :

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحي

فقد أراد الشاعر بهذا التجريد توطين نفسه على احتمال المكروه فجردها مخاطبا لها .

قال معاوية بن أبى سفيان : يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب . وقال : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، ولقد رأيتني ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجَّل ، بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة :

أبت لى همتـى ، وأبى بلائـى وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإقحامى على المكروه نفسـى وضربى هامة البطـل المشيـح

وقولى كلـما جـشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

لأدفـع عن مآثـر صالحـات وأحمى بعد عن عرض صحيح[1]

وقد تكون نكتة هذه الصورة من صور التجريد قصد التحريض أي حث النفس وتحريضها على لزوم ما تؤمر به كقول المتبنى الذى مثل به ابن الأثير للتجريد المحض وهو :

لا خيل عنك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

فإنه جرد نفسه وخاطبها على جهة التحريض على مدح الممدوح .

وليس هناك ما يمنع أن تكون هذه النكات البلاغية لتلك الصورة من صور التجريد مع الفائدتين اللتين ذكرهما ابن الأثير .

---

(١) العمدة جـ ١ ، ص ٨٨ ، وينظر المطول ص ٤٣٣ .

السادس : أن ابن الأثير قد مثل للتجريد المحض بقول الحيص بيص :

إلام يراك المجد فى زِى شاعر وقد نحلت شوقا فروع المنابر

وزعم أن الشاعر لم ينتقل إلى ذكر نفسه ، بل استمر على التجريد ، أى على أسلوب الخطاب ، لأنه قال بعد هذا البيت :

كتمت بعيب الشعر حلما وحكمة ببعضها ينقاد صعب المفاخر

الأبيات .

قال ابن أبى الحديد : أقول : إنه قد انتقل بعد هذا إلى ذكر نفسه ، فعدل عن كاف الخطاب ، إلى ياء الضمير ، إلى تاء التكلم فقال :

تطاول ليلى ، ما أرى ذا نباهـة يُجَلِّى دجى ظلمائـه عن خواطـرى

سهرت لبرق من ديـار ربيعـة ولم أك للبـرق اللمـوع بساهـر

فإن كان الصمة القشيري لم يأت فى شعره بالتجريد الحقيقى ، لعوده بعد أبيات عن كاف الخطاب ، فالحيص بيص مثله[1] .

---

(١) الفلك الدائر على المثل السائر جـ ٤ ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

القائل ابن جنى لا أبو على الفارسى :

قال ابن الأثير عقب كلامه السابق عن أقسام التجريد وشواهده : « وأما الذي ذكره أبو على الفارسى ـ رحمه الله ـ فإنه قال : إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله . فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا من الإنسان كأنه غيره ، وهو بعينه ، نحو قولهم : « لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد » و « لئن سألته لتسألن منه البحر » وهو بعينه الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه ، أو متميزا منه .

ثم قال : وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه ، حتى كأنه يقاول غيره ، كما قال الأعشى :

* وهل تطيق وداعا أيها الرجل *

وهو الرجل نفسه لا غيره .

هذا خلاصة ما ذكره أبوعلى رحمه الله[1] .

* * *

قبل أن نتحدث عن مناقشة ابن الأثير لأبى على الفارسى في هذا الكلام ، نقف وقفة قصيرة مع ابن الأثير نبين فيها حقيقة نسبة هذا القول ، أقائله هو أبو على كما زعم ابن الأثير أم تلميذه أبو الفتح ابن جنى ؟

فأقول : إن هذا الكلام الذى نسبه ابن الأثير إلى أبى على الفارسى غير صحيح ، فليس هو قائل هذا الكلام ، وإنما قائله تلميذه ابن جنى ، ولو أن ابن الأثير ذكر المصدر الذى رجع إليه فى نسبة هذا الكلام إلى أبى على لكنا سلمنا بتلك النسبة دون بحث عن صحتها أو عدم صحتها ، لأن ابن الأثير ثقة وصدوق ، ولكن ذكر هذا المصدر غير مستطاع لأمرين :

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ص ١٦٤ ، وينظر الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٤ .

أحدهما : أن هذا القول ليس موجودا فى أي كتاب من كتب أبى على ، ولم ينسبه إليه أحد إلا ابن الأثير .

والثاني : أن المرجع الذى رجع إليه ابن الأثير في هذا الكلام هو « الخصائص » لابن جنى ، وقد أخذه من هذا الكتاب متوهما أنه كلام أبى على يحيكه عنه تلميذه ابن جنى وليس الأمر كذلك .

وقد سبق كلام أبى على عن التجريد فى ثلاثة من كتبه : البغداديات ، وكتاب الشعر ، والحجة ، وقد تحدث عن التجريد فى كتاب الشعر في أكثر من موضع ، ولم يأت ذكر كلمة « التجريد » ولا هذا الكلام المنسوب إليه فى موضع واحد ، كذلك كتاب « الحجة » الذى طال نفسه فى الكلام عن التجريد على قراءة حمزة والكسائى فى قوله تعالى : (قال اعْلَمْ أن الله على كل شيء قدير) وسود أكثر من صفحة وهو يتكلم عن بلاغة التجريد على هذه القراءة واستشهد له بعدة شواهد من الشعر ، والتجريد على هذه القراءة من قبيل ما يقصده ابن الأثير بالتجريد وهو مخاطبة الإنسان نفسه وقد تحدث عن هذه الآية قبل ذلك في « البغداديات » وأوجز الكلام عنها ، دون ذكر لهذا القول المنسوب إليه وبيت الأعشى ذكره في « الحجة » كاملا ، وذكر الشطر الأخير منه فى « كتاب الشعر » ولكن دون ذكر لهذا الكلام المنسوب إليه .

* * *

والذى جعل ابن الأثير ينسب هذا الكلام لأبي على دون قائله الحقيقي وهو ابن جنى ، أنه وجد ابن جنى فى صدر حديثه عن التجريد قد حكى عن أبى على استجادته واستحسانه وشغفه واهتمامه بهذا الفن من القول قائلا : « ورأيت أبا على رحمه الله ـ به غريا معنيا ، ولم يفرد له بابا ، لكنه وسمه فى بعض ألفاظه بهذه السمة ، فاستقريتها منه وأنقت لها » ثم أتبع هذا الكلام بدون فاصل بقوله : « ومعناه : أن العرب قد تعتقد أن في الشيء من نفسه معنى آخر . . . » الخ ،

فتوهم ابن الأثير أن هذا الكلام لأبى على يحكيه عنه تلميذه ابن جنى والصواب غير هذا ، لأن ما يحكيه ابن جنى عن أبى على قد انتهى بقوله : « فاستقريتها منه وأنقت لها » .

ثم بدأ هو يتحدث عن معنى التجريد وصوره وشواهده التي عقد هذا الفصل من أجلها .

إذا قول ابن جنى : « إن العرب قد تعتقد . . . » الخ كلام جديد مستأنف لا صلة ولا علاقة له بما قبله ، وهو كلام ابن جنى لا كلام أبى .

ولو أن هذا الكلام لأبي على لقال : قال : ومعناه . . الخ ، كما هي عادة ابن جنى مع أستاذه ، وخاصة أنه لم يذكر لأبى على قبل ذلك كلاما في التجريد فابن الأثير قد توهم أن قول ابن جنى بعد ذكر اسم أبى على : « ومعناه أن العرب . . . » هو كلام أبى على يحيكه عنه تلميذه ، وهذا غير صحيح .

* * *

أما قول ابن جنى عن أبى على : « لكنه وسمه فى بعض ألفاظه بهذه السمة . . . » فلا يعنى أن أبا على هو الذي سمى هذا النوع من الكلام باسم التجريد ، وأنه قد أطلق عليه هذا المصطلح ، لأن أبا على لم يذكر كلمة التجريد فى المواضع التى تحدث فيها عن هذا الفن ، ولم يعقد أيضا له بابا خاصا به ، وإنما يعنى ابن جنى بهذه العبارة ـ كما ذكرنا قبل ـ مدح أبى على وإشادته واحتفاله بهذا الفن ، ووصفه بأنه طريف حسن .

ولم نر أبا على قد أكثر الكلام عن التجريد إلا في « كتاب الشعر » ، وقد سبق دراسة المواضع التي تحدث فيها عن التجريد ، ولم نجد فى كلامه عنها ذكر كلمة التجريد وكذلك كتاب « الحجة » ذكرنا الموضع الذى أطال الكلام فيه عن التجريد في قراءة حمزة والكسائى لقوله تعالى : ﴿ قال اعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ فلم نجد أيضا ذكرا لكلمة التجريد ولو أن أبا على ذكر كلمة « التجريد » ،

وذكر الكلام الذى نسبه إليه ابن الأثير لكان ذكره اما في « كتاب الشعر » أو « الحجة » أو فى كليهما ، لأن هذين الكتابين هما اللذان أكثر الكلام فيهما عن التجريد ، وهما أيضا من أواخر كتبه من حيث زمان التأليف ، فكتاب الشعر من تصانيف أبى على المتأخرة ، فليس بعده إلا « أقسام الأخبار » و « المسائل المنثورة » ثم « الحجة » و « الحجة » آخر تأليفه ، على ما انتهى إليه الدكتور عبد الفتاح شلبي[1] .

ومما يؤيد ويدعم ما ذهبنا إليه ، هو طابع هذا الكلام المنسوب إلى أبى على الفارسى ، وما يلوح عليه من معنى فلسفى ، إذ أن قائله لا يريد به حد التجريد ، وإنما يعلل به انتزاع وتجريد شيء من شيء آخر ، وخاصة انتزاع ا لإنسان من نفسه شخصا اخر يخاطبه ويقاوله ، وهذا المعنى أليق وأنسب بأن يكون قائله ابن جنى فيلسوف اللغة ، من أن يكون قائله أبو على الفارسى النحوى .

ويؤيد هذا أيضا أن الكلام الذى نسبه ابن الأثير لأبى على ، له بقية متصلة به اتصالا وثيقا وكأنها تتمة وتكملة له ، وقائلها قطعا هو ابن جنى ، لأن ابن الأثير لم يذكرها فيما نسبه إلى أبى على ، ولأنها واقعة فى آخر كلام ابن جنى عن التجريد ، وبها ختم كلامه عنه .

قال : « وقد دعا تردد هذا الموضع على ا لأسماع ـ ومحادثته الأفهام ، أن ذهب قوم إلى أن الإنسان هو معنى ملتبس بهذا الهيكل الذى يراه ، ملاق له ، وهذا الظاهر مماس لذلك الباطن ، كل جزء منه منطو عليه ومحيط به »[2] وهو معنى فلسفي كما ترى .

---

(١) ينظر مقدمة تحقيق كتاب الشعر للدكتور محمود الطناحى جـ١ ، ص ٢٦ ، وأبو على الفارسى للدكتور عبدالفتاح شلبى ص ١٥٠ .

(٢) الخصائص جـ٢ ، ص ٤٧٦ .

مناقشة ابن الأثير لأبى على الفارسى :

قال ابن الأثير عقب كلامه السابق مباشرة : هذا خلاصة ما ذكره أبو على رحمه الله والذى عندى فيه : أنه أصاب فى الثاني ولم يصب في الأول ، لأن الثانى هو التجريد ، ألا ترى أن الأعشى جرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها .

وأما الأول وهو قوله : « لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد . ولئن سألته لتسألن منه البحر» فإن هذا تشبيه مضمر الأداة ، ألا ترى أن المذكورر هو كالأسد ، وهو كالبحر ، وليس ثم شيء مجرد عنه ، كما تقدم في الأبيات الشعرية[1] .

موقف ابن الأثير من العلماء نحويين ولغويين وبلاغيين لم يكن مشرفا له ، وتعقيبه على كثير من أقوالهم وآرائهم التي ينقلها عنهم كان عليه لا له ، وهذا نتاج ما كان عليه ضياءالدين من غرور وتيه وإعجاب بنفسه ، متمثلا في إعجابه بعلمه ، وامتداح نفسه وآرائه وكتبه وأقواله فى ذلك كثيرة مبثوثة فى ثنايا « المثل السائر » .

قال ابن أبى الحديد إن الذى حداه على وضع كتابه أمور منها :

إزراؤه على ا لفضلاء ، وغضه منهم ، وعيبه لهم ، وطعنه عليهم ، فإن ذلك مايدعو إلى الغيرة عليهم .

ومنها : إفراطه في الإعجاب بنفسه ، والتبجح برأيه ، والتقريظ لمعرفته وصناعته ، وهذا عيب قبيح يحبط عمل الإنسان والاجتهاد ، ويوجب المقت من رب العباد [2] .

قلت : ومن عيبه على المتقدمين :

١ ـ زعمه أنه بعد تصفحه كتب السابقين ، ومعرفة غثها وثمينها لم يجد فيها كتابا ينتفع به الا كتابين على أن الكتابين ـ على حد زعمه ـ ربما ذكرا قشورا وتركا لبابا[3] .

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٢) ينظر الفلك الدائر جـ ٤ ، ص ٣٢ .

(٣) المثل جـ ١ ص ٣٣ .

٢ ـ قوله : ولما وقفت على أقوال الناس فى هذا الباب ـ يريد باب الفصاحة والبلاغة ـ ملكتنى الحيرة ولم يثبت عندى ما أعول عليه [١] .

٣ ـ قوله : وقد وقفت على كتاب يقال له : (مقدمة ابن أفلح البغدادى) وقد قصرها على تفصيل أقسام الفصاحة والبلاغة ، وللعراقيين بها عناية ، وهم واصفون لها ، ومكبون عليها ، ولما تأملتها وجدتها قشورا لا لب لها [٢] .

٤ ـ قوله : النحاة لا فتيا لهم فى مواقع الفصاحة والبلاغة ، ولا عندهم معرفة بأسرارها من حيث إنهم نحاة [٣] .

وقال عن النحاة أيضا : وهذه دقائق لا تؤخذ من النحاة ، لأنها ليست من شأنهم [٤] .

ومن الغريب أن يقول في النحاة هذا الكلام ويصفهم بما وصفهم به وما قالوه فى التجريد خير مما قاله ، بل وما كان لهذا الفن وجود ولا حياة لولا النحويون واللغويون ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى الفصل الأول .

٥ ـ يكثر في كتابه من ترداد هذه العبارة الدالة على إعجاب شديد بنفسه ، وأن لا كلام إلا كلامه هو ، وهى : « وما أعلم كيف خفى ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه »[٥] وقد ذكر هذه العبارة هنا أيضا وهو يناقش أبا على حيث قال : « وما أعلم كيف ذهب على مثل أبى على ـ رحمه الله ـ حتى خلطه بالتجريد ، وأجراه مجراه »[٦] .

---

(١) المثل السائر جـ ١ ، ص ٩١ .
(٢) السابق جـ ٢ ، ص ٥٩ ،
(٣) السابق جـ ٣ ، ص ١٣ .
(٤) السابق جـ ٣ ، ص ١٥ .
(٥) السابق جـ ٢ ، ص ١١٥ .
(٦) السابق جـ ٢ ص ١٦٦ .

* * *

وقد تناول ابن الأثير فى مناقشته لأبى على فى الفقرة التى ذكرناها أمرين :

أحدهما : أن ليس التجريد : حقيقة ومعنى وأقساما إلا ما ذكره هو ، أما ما قاله غيره فى هذه الأمور فليس من التجريد فى شيء ، وكأن ما قاله فيه وحى أوحاه الله إليه ، فلا ينبغي أن يخالف فيه وأن يذهب إلى غير ما ذهب إليه أحد .

وهذا يكشف عنه قوله : « والذى عندى فيه : أنه أصاب فى الثاني ولم يصب فى الأول ، لأن الثانى هو التجريد ، ألا ترى أن الأعشى جرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها » .

أي : ما التجريد الاصطلاحي الا ما جرد فيها المتكلم من نفسه شخصا آخر ثم خاطبه ، أما من يقول بسوى هذا ، ويأتى بشواهد يطلق عليها اسم التجريد وليست بهذه الصفة ، فقد أخطأ ولم يقل صوابا . وهو فى الحقيقة المخطيء الذي توهم أن التجريد مقصور على تلك الصورة التي ذكرها ، ولم يدر أنه أوسع دائرة ومفهومه أوسع من ذلك ، وأنه يشمل ما ذكره وغيره من الصور الكثيرة التي هي أبلغ مما قصر عليه التجريد بمراحل .

ونفسح هذا الآن المجال لابن أبى الحديد لكى يناقش ابن الأثيرفى « الحد » الذى حد به التجريد ، ثم نعود للأمر الثاني فنذكره ثم نناقش ابن الأثير فيه .

قال ابن أبى الحديد بعد أن ذكر الفقرة التى ذكرناها من كلام ابن الأثير التي بدأ بها مناقشته لأبى على :

أقول : إن الحد الذى حد هذا الرجل التجريد به لم يأت فيه نص من كتاب الله تعالى ، ولا ورد عن رسول الله ، وإنما هو حد اختاره هو وفسر التجريد به ، فإنه حجر على أبى على رحمه الله أن يجعل التجريد شيئا اخر ومعلوم أن هذه

الاصطلاحات والمواصفات موكولة إلى آراء العلماء واختياراتهم ، فأبو على رحمه الله اختار أن يسمى قولهم : (إذا سألت زيدا سألت بحرا) تجريدا ، وقد شرح ذلك وأوضحه . . . فأبو علي رحمه الله سماه تجريدا ، وهو غير مانع لك من اصطلاحك ، ولا مشاح لك في حدك الذى ذكرته للتجريد ، فكذلك أنت لا تجور ولا تضايقه في اصطلاحه وتجريده [1] .

* * *

الأمر الثاني : أن ما زعمه ابن الأثير من أن نحو قولهم : « لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر » ليس بتجريد ، وإنما هو تشبيه مضمر الأداة ، نحو « زيد أسد » ، زعم باطل ، وقول مردود ، لا شيء فيه من الصواب ، وذلك للأمور التالية :

أولا : أن ابن الأثير ما قال ذلك إلا وهو يتوهم أن التجريد ينافى التشبيه وأن التجريد فقط هو ما يكون بخطاب الإنسان نفسه ، وليس ا لأمر كذلك ، بل هذه الصورة التى نفى التجريد عنها فيها تجريد وتشبيه معا . ولهذا كانت هذه الصورة الجامعة للأمرين : التجريد والتشبيه أبلغ صور التجريد كلها ، كما ذكرنا أكثر من مرة .

ثانيا : أن قول ابن الأثير : « إذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه ، فيصح أن نقول : « لئن لقيت فلانا لتلقين منه كالأسد ، ولئن سألته لتسألن منه كالبحر » قول غير صحيح ، لأنه لو كانت هذه الصورة من قبيل التشبيه المضمر الأداة التي يحسن فيها تقدير كلمة التشبيه لأدخلها الخطيب القزويني وشراح تلخيصه فى « التشبيه الاصطلاحي » ولكنهم أطلقوا عليه ا التشبيه الضمنى أو اللغوى ، وذلك لأمرين :

أحدهما : أنه لم يذكر فيها الطرفان على وجه ينبىء عن التشبيه ، أو أن المشبه به لم يجتلب فيها لإثبات التشبيه .

---

(١) الفلك الدائر جـ ٤ ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

وهذا الأمر قد اقتصر عليه الخطيب قال : « . . . . ولا يسمى تشبيها أيضا ، لأن اسم المشبه به لم يجتلب فيه لإثبات التشبيه »[1] وسيأتى كلام الخطيب فى هذه الصورة من صور التجريد .

والثاني : أن التشبيه الاصطلاحي ما كان بالكاف ونحوها لفظا أو تقديرا .

قال سعد الدين التفتازاني بعد أن ذكر تعريف الخطيب للتشبيه وهو « الدلالة على مشاركة أمر لأمر فى معنى والمراد ههنا ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية والاستعارة بالكناية والتجريد » : « فمعنى التشبيه في الاصطلاح عند المصنف (هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى لا على وجه الاستعارة التحقيقية والاستعارة بالكناية والتجريد) وينبغى أن يزاد فيه قولنا : (بالكاف ونحوه لفظا أو تقديرا)[2] .

وهذا الأمرقد ذكره شراح التلخيص[3] .

وتقدير الكاف فى هذه الصورة من صور التجريد يخرجها عن التجريد الذى هو المقصد الأصلى فيها .

ثم إن عبد القاهر جعل هذه الصورة أبلغ من التشبيه الاصطلاحي لا بالكاف ، بل بأداة التشبيه « كأن » التى هى أبلغ من الكاف ، وجعلها فى الموضع الأول الذى تعرض فيه لهذه الصورة من « دلائل الإعجاز » مساوية للتشبيه البليغ نحو « زيد أسد » و « زيد هو الأسد » ، وقد ذكرنا ما قاله فى تعليل كون التشبيه فيها أبلغ من التشبيه بالحرف « كأن » وهو أنك تجعله في « كأن » في قولك : « كأن زيدا الأسد » يتوهم أنه الأسد ، وما ذاك إلا بسبب التصريح بأداة التشبيه ، ولكن فيى قولك : « لئن لقيته ليلقينك منه الأسد » تجعله ههنا يرى منه الأسد على

(١)ينظر الإيضاح جـ٢ ، ص ٤١٣ .

(٢) ينظر المطول ص ٣١١ .

(٣) ينظر شروح التلخيص جـ٣ ، ص ٢٩٤ .

القطع ، فيخرج الأمر عن حد التوهم إلى حد اليقين . كما قال عبد القاهر فكيف إذا صنعنا بهذا التعبير البليغ ما صنعه به ابن الأثير لا بتقدير « كأن » بل بتقدير الكاف ؟

لا شك أن التعبير حينئذ يكون قد فقد فضيلتين : التجريد ، والمبالغة في التشبيه ، وعاد بتقدير ابن الأثير تشبيها ساذجا غفلا ، كالتشبيه في قولنا : « زيد كالأسد » ! .

وجه آخر أبطل به ابن الأثير كلام أبى على :

بعد كلام ابن الأثير السابق الذى خطأ فيه أبا على الفارسى لعده قولهم : لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر » من التجريد ، زاعما أنه ليس بتجريد وإنما هو تشبيه مضمر الأداة ، ذكر وجها آخر يبطل به ما قاله أبو على .

قال : ويبطل على أبى على قوله أيضا من وجه آخر ، وذاك أنه قال : « إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله ، كالمثال الذى مثله فى تشبيهه بالأسد وتشبيهه بالبحر .

وهذا ينتقض بقولنا : « لئن رأيت الأسد لترين منه هضبة ، ولئن لقيته لتلقين منه الموت » فإن الصورة التى أوردها فى الانسان ، وزعم أن العرب تعتقد أن ذلك معنى كامن فيه قد أوردنا مثلها فى الأسد ، فتخصيصه ذلك بالإنسان باطل .

وكلا الصورتين ليس بتجريد ، وإنما هو تشبيه مضمر الأداة »[1] .

* * *

وهذا الوجه الذى احتج به ابن الأثير لإبطال ما قاله أبو على في غاية الضعف ، وكأن قصده الأول والأخير هو أن يبطل ما ذهب إليه أبو على بأي وجه سواء كان ذلك بالحق أم بالباطل ، وهذا هو التحامل والتعسف فى النقد بعينه والعبارة التى وردت فيها كلمة « الباطل » هي الباطل نفسه ، وهى قوله : « فتخصيصه ذلك بالإنسان باطل » لأن أبا على لم يخص بذلك الإنسان ، ولم يستعمل فى كلامه أسلوب الاختصاص ، حتى يزعم ابن الأثير أنه يقصر هذا المعنى على الإنسان دون غيره .

وندع ابن أبى الحديد يرد هذا الكلام المتهافت ويدحضه .

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ، ص ١٦٥ .

قال : إن أبا على لم يرد أن هذا الاستعمال مقصور على الإنسا ن فقط ، ولا صرح بذلك ، ولا كنى عنه ، ولا هو مفهوم من فحوى قوله : « إن العرب تعتقد في الإنسان معنى كامنا فيه » ولا يدل على نفي ا لحكم عما عداه ، وإنما مثل بالإنسان لأنه أشهر ، ولأن استعماله فيه ودورانه على ألسنتهم وفى ألفاظهم أكثر [1] .

رحم الله ابن أبى الحديد لقد قال فأحسن القول ، وليس هناك ما هو خير من هذا الكلام فى رد وإبطال ما توهمه ابن الأثير فى مقولة أبى على ، مما لم يكن قد خطر على باله رحمه الله .

وكيف يكون أبو على قد خص ذلك المعنى بالإنسان دون غيره ، وهو لا شك أنه وقف على التجريد فى قوله تعالى : (**لهم فيها دار الخلد**) والمنتزع والمنتزع منه غير إنسان ولا حيوان ، بل هي جهنم قد انتزع منها دار أخرى مثلها ، ثم جعلت معدة للكافرين ؟

---

(١) الفلك الدائر جـ ٢ ، ص ٢٢٠ .

عودة إلى مفهوم التجريد عند ابن الأثير :

عاد ابن الأثير إلى الكلام عن مفهوم التجريد عنده ، الذى لا يرى للتجريد مفهوما غيره ، وأنكر بشدة على من يقول بغير ذلك ، فقال : « وقد سبق القول بأن التجريد هو أن تطلق الخطاب على غيرك ، ولا يكون هو المراد ، وإنما المراد نفسك . وهذا لا يوجد فى هذا المثال المتسمر الأداة ، بل المخاطب هو هو لا غيره ، فلا يطلق عليه إذا اسم التجريد ، لأنه خارج عن حقيقته ، ومناف لموضوعه .

فإذا قال القائل : « لئن لقيته لتلقين به كالأسد ، ولئن سألته لتسألن منه كالبحر » لم يجرد عن المقول عنه شيئا ، وإنما شبهه تارة بالأسد في شجاعته ، وتارة بالبحر في سخائه .

وما أعلم كيف ذهب هذا على مثل أبى على ـ رحمه الله ـ حتى خلطه بالتجريد ، وأجراه مجراه »[1] .

* * *

وقد رد ابن أبى الحديد على هذا الذى لا يمل ابن الأثير من تكراره ، وهو أن حقيقة التجريد ليست إلا التي ذكرها ، ومن يقول بغيرها فهو مخطىء ، وينبغي أن ينكر قوله ويتعجب منه ، وهذا من فتنة القول أعاذنا الله منها .

وكأن لسان حاله يقول :

إذا قالت حزام فصدقوها فإن القول ما قالت حزام

وكأنه أبو النجم القائل :

*** أنا أبو النجم وشعرى شعرى ***

والحقيقة أنه ممن قيل فيهم :

*** حفظت شيئا وغابت عنك أشياء ***

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(الفلك الدائر جـ ٤ ، ص ٢٢١ .

قال ابن أبى الحديد : قد بينا أن المنازعة فى هذا الموضع لفظية لا طائل تحتها ، ولو أن أبا على رضى الله عنه اختار أن يسمى « المجاز » تجريدا بمعنى أنه لفظ قد جرد عن موضوعه الأصلى ، أي خلع عنه ، وجعل لغيره ، واصطلح هوونفسه ، أو هو وأصحابه على ذلك ، هل كان لنا أن نخاصمهم ، وننازعهم ، ونقول لهم قد أخطأتم فى هذا الاصطلاح وهذه المواضعة ؟ وهل المعانى تستحق الأسماء المخصوصة لذاتها حتى يكون الإنسان مخطئا إذا وضع لفظا مخصوصا لمعنى مخصوص ؟ وقد فسرنا نحن قول أبى على رضي الله عنه المقصد الذي قصده »[1] .

((١) الفلك الدائر جـ ٤ ، ص ٢١١ .

أيا ما كان يعنى أبو على بمقولته فهو مخطىء :

يواصل ابن الأثير مناقشته لأبى على فى ما يعنيه بقوله : « إن العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله» وهى مناقشة عقيمة جدباء ، أقرب إلى الفلسفة وعلم الكالم منها إلى الروح البلاغية ، وليس وراءها طائل .

قال ابن الأثير : وأما قوله : « إن العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله » فأقول : وغير العرب أيضا تعتقد ذلك .

فإن عنى بالمعنى الكامن معنى الإنسانية الذى هو الاستعداد للعلوم والصنائع ، فما هذا من الشيء الغريب الخفى الذى علمته العرب خاصة ، وتفرد باستخراجه أبو على رحمه الله .

وإن عنى بالمعنى الكامن ما فيه من الأخلاق كالشجاعة والسخاء فى المثال الذى ذكره ، حتى يشبه بالأسد تارة ، وبالبحر أخرى ، فليس الإنسان مختصا بهذا المعنى الكامن دون غيره من الحيوانات ، بل جميع الحيوانات يوجد فيها ذلك ، كالشجاعة فى الأسد ، والسخاء فى الديك .

فالأخلاق إذا مشتركة بين الإنسان وغيره من الحيوانات ، غير أن الإنسان يجتمع فيه ما تفرق فى كثير منها .

وما أعلم ما أراد أبو على ـ رحمه الله ـ بهذا الكلام ، إلا أن يكون أحد هذين القسمين اللذين أشرت إليهما .

على أن هذا القسم الأخير الذي هوخلق الشجاعة والسخاء وغيره من الأخلاق ، ليس عبارة عن حقيقة الإنسان ، إذ لا يقال فى حده « حيوان شجاع ، ولا سخى » بل يقال : « حيوان ناطق » .

فقد أخطأ أبو على من وجهين :

أحدهما : أنه جعل حقيقة الإنسان عبارة عن خلقه .

والآخر : أنه أدخل فى التجريد ما ليس منه[1] .

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ، ص ١٦٦ . بتصرف .

ما المخطىء أبو على :

إن أبا على رحمه الله لا يلزمه تفسير ما كانت العرب تتخيله وتتوهمه فى الإنسان ، ولا هذا من وظيفته ، ولكن أبا على قال : إننا لما وجدنا العرب الذين صناعتنا البحث عن مجارى كلامهم يخاطبون فى الشعر أنفسهم فيقولون : قلت لقلبى ، وقال لى ، ويقولون : سألت منه لما سألته البحر ، فيأتون بلفظة « منه » كما يأتون بها فى قولهم : « غصبت منه السيف » و « أخذت منه الثوب » فيفيد ظاهر كلامهم أن المسئول منه غيره كما أن المغصوب منه غيره ، أفادنا إكثارهم من هذا وتكرارهم لاستعماله أنهم يتوهمون أن فى هذه البنية المشاهدة أمرا كامنا هو محصول الإنسان ، وهذا الهيكل الظاهر هو كالقالب لذلك المعنى ، وكالقشر لذلك اللب ، ومن الجائز أن يكون هذا المعنى الباطن غير القسمين اللذين قد ذكرهما المصنف ، وهما مجرد الاستعداد للعلوم والخلق فليناظر فى نقيض ، خصوصا ومذاهب العقلاء فى هذا الموضع كثيرة جدا ، وكلها خارجة عن هذين القسمين اللذين قد ظن هذا الرجل أنه لا يمكن تفسير ما توهمه العرب إلا بواحد منهما ، ثم يقال له : لم لا تفسر قول أبى على رحمه الله بالوجه الأول وهو قولك : إن غير العرب أيضا تعتقد ذلك ؟ فيقال لك : إن أبا على ما قال إنه لا يعتقد ذلك أحد من الأمم إلا العرب خاصة ، وإنما كانت صناعته البحث عن مجارى كلام العرب ، وقال إنهم لا يعتقدون كذا وكذ ، لأنه لا ينظر فى لغة أخرى غير العرب ، وإنما كتبه وتصانيفه مقصورة على البحث عن لغاتهم خاصة ، فلا يدل كلامه على نفى هذا الحكم عن غير العرب ، وأيضا لو فسر قوله بالتفسير الثاني وإن كنا نعلم أنه رحمه الله لم يرده ـ لما توجه عليه ما اعترض به ، لأنه لم يفرد الإنسان خاصة من دون سائر الحيوان بهذا الحكم ، وإنما ضربه مثلا ، لأنه النوع الأعرف .

ومن العجب قوله : ولا أعرف ما أراده أبو على بقوله : إنهم يتوهمون فى الإنسان معنى كامنا هو حقيقته ومحصوله ، إلا أن يكون أحد هذين القسمين اللذين أشرت إليهما .

ولا شبهة أن هذا الرجل ما وقف على أقوال العقلاء فى هذا الموضع ، فإن مذاهبهم كثيرة ، وكل منهم يذهب إلى أن حقيقة الإنسان ومحصوله أمر وراء هذه البنية المشاهدة ، ولم يذهب منهم ذاهب إلى أحد هذين القسمين اللذين قد توهم هذا الرجل أنه لا يمكن المصير إلى غيرهما .

* * *

فأما قوله : إن أبا على رحمه الله أخطأ حيث جعل حقيقة الإنسان عبارة عن الخلق ، فإن أبا على يكون قد أخطأ لو أنه قد قال هذا الكلام عن نفسه أو عن غيره ، أما أنه لم يقله عن غيره فلأنه قال عن العرب : إنهم اعتقدوا أن في الانسان معنى كامنا كأنه حقيقته ومحصوله ، فصرح بأداة التشبيه وهي « كأن » وما قال عنهم : إنهم قالوا إن ذلك المعنى هو حقيقة الإنسان ، ليقول لهم ذلك المعنى وهو خلقه ، وخلقه غير داخل فى حده وحقيقته .

وينبغى للناس إذا حكوا شيئا شرعوا فى نقضه أن يتأملوا ما حكوا ثم ينقضوا ، وبالجملة فمقام الشيخ أبى على رحمه الله مقام جليل يقتضى أن يحترم ويصان ، ولا يستعمل معه التسرع بالتخطئة والرد ، وإذا وجد فى كلامه ما يستدرك استدرك مع استعمال الأدب [1] .

---

(١) ينظر الفلك الدائر جـ ٤ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤ .

من تأثر بابن الأثير في بحث التجريد :

هناك رجلان من المصنفين فى البلاغة تأثرا بما قاله ابن الأثير فى « التجريد » تأثر تاما ، بمعنى أنهما لم يأتيا بجديد فى هذا الفن ، ولم يخرجا عما قاله فيه ابن الأثير ، ولم ينظرا إلى كتاب بحث فيه هذا الفن إلا المثل السائر .

أحدهما : ما أحسن ولا أساء ، ما أحسن إذ لم يأت بشيء جديد يمكن أن يضاف إليه ، ولا أساء لأنه لخص كلام ابن الأثير ، ولم يخطىء فى النقل عنه وذلك هو الإمام عبد الله جمال الدين محمدبن سليمان البلخى المقدسى الحنفي الشهير بابن النقيب ، والمتوفى سنة ٦٩٨ هـ ، وذلك فى كتابه : « مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعانى والبديع وإعجاز القرآن » .

والثاني : ما أحسن وأساء ، ما أحسن إذ لم يأت مثل الأول بأي شيء يمكن أن ينسب إليه ، بل ردد ما قاله ابن الأثير فى التجريد ، وأساء لأنه لم يكن أمينا فى بعض ما نقله من « المثل السائر » ، وقد أخطأ في بعض ما ذكره فى هذا الفن ، وما ذلك إلا نتيجة جده الدائب واجتهاده المتواصل فى إخفاء أخذه فيبذل من أجل ذلك كل طاقته فى تغيير عبارة ابن الأثير بعبارته هو ، وهذا الصنيع أدى به إلى الوقوع في الخطأ .

ذلك هو الإمام يحى بن حمزة العلوى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ فى كتابه : « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » .

التجريد فى مقدمة ابن النقيب :

لخص ابن النقيب ـ كما قلنا ـ ما ذكره فى مقدمته من مبحث التجريد فى « المثل السائر » ولم يخالف ابن الأثير إلا فى إطلاق الأسماء فقط ، فابن الأثير أطلق على القسم الأول : اسم التجريد المحض ، فسماه ابن النقيب : « خطاب الغير » ، وسمى ابن الأثير القسم الثاني : التجريد غير المحض ، فسماه : « خطاب المتكلم لنفسه » ، ولم يتعرض لمناقشة ابن الأثير لأبي على الفارسى ، عكس الإمام العلوى الذى تناولها في بحثه للتجريد ، وليته ما فعل .

قال ابن النقيب : وهو على قسمين : الأول : خطاب الغير والمراد به المتكلم . وهو أولى باسم التجريد ، وفائدته مع التوسع في الكلام أن يثبت الإنسان لنفسه مالا يليق التصريح بثبوته له ، وذلك قد يكون فضيلة كقول الحيص بيص :

إلام يراك المجد فى زى شاعر وقد نحلت شوقا فروع المنابر

الأبيات[1] .

وقد تكون نقيصة ولكن يؤثر إبداؤه أما لتشكٍّ كقول النابغة [2] :

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتى الأمر طائعا وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا

واذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدعا

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا[3]

أو يكون لغير التشكي وذلك كالاعتذار كما قال المتنبى :

---

(١) ينظر مقدمة تفسير ابن النقيب ص ٣٥٠ ، والمثل السائر جـ١ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) هذا خطأ ، والصواب : الصمة بن عبد الله القشيرى .

(٣) ينظر المثل السائر جـ٢ ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

البيتان[1]

القسم الثاني : خطاب المتكلم لنفسه مخيلا لها أن معه غيره كما قيل[2]

أقول للنفس تأساء وتعزية إحدى يدى أصابتنى ولم ترد[3]

هذا هو كل ما قاله ابن النقيب في فن « التجريد » وهو كما ترى .

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ، ص ١٦٤ .

(٣) مقدمة تفسير ابن النقيب ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

التجريد فى « الطراز » للعلوى :

قال أحد ا لشعراء :

يا قارع الباب على عبد الصمد لا تقرع الباب فليس ثَمَّ أحد

وسنخالف هذا الشاعر ونقرع الباب لعل وعسى . .

جعل العلوى (٦٦٩ ـ ٧٤٩ هـ) التجريد أحجد أصناف ا لفصاحة اللفظية ، أي أحد أنواع البديع اللفظي .

التجريد صنف من أصناف البديع اللفظي

قال العلوى : « الصنف السابع عشر : فى التجريد »[1] .

ولم يدرس أحد من البلاغيين ـ بدءاً من ابن الأثير ـ ا لتجريد على أنه من أحوال الألفاظ المركبة ، وذلك قبل ظهور مصطلح « علم البديع » قسيم علمي المعانى والبيان على يد بدر الدين بن مالك (٦٨٦ هـ) في كتابه « المصباح » .

كما لم يدرسه أحد على أنه محسن بديعي لفظي ، وذلك من الذين عدوه فنا من فنون البديع ، بعد ظهور مصطلح « علم البديع » . وإنما درسه هؤلاء في باب البديع المعنوى ، كما أن ابن الأثير قبلهم لم يدرسه فى القسم الثاني من المقالة الأولى : في الألفاظ المركبة ، التي درس فيها السجع ، والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم ما لا يلزم ، بل درسه فى النوع الثالث من أنواع الصناعة المعنوية ، أي أن التجريد فن يتعلق بالمعنى لا باللفظ .

وذلك لأن التجريد يفيد المبالغة ، وهي الفائدة التي تعم صوره كلها ، والمبالغة إنما تكون في المعاني لا في الألفاظ ، وقد درس البديعيون المبالغة التي هي أدنى منزلة من مبالغة التجريد في ا لبديع المعنوى ، وعدوها محسنا بديعيا معنويا لا لفظيا .

---

(١) ينظر الطراز جـ ٣ ، ص ٧٢ .

وهناك سبب آخر يوجب على البلاغى الواعى البصير ألا يبحث التجريد فى المحسنات اللفظية، وهو أن بعض صوره يفيد إلى جانب التجريد المفيد للمبالغة : التشبيه ، وبعضها الكناية ، وبعضها الالتفات ، وهذه الفنون النظر فيها إلى المعانى لا إلى الألفاظ .

إذا لا وجه للعلوى فى ذكره « التجريد » في البديع اللفظي ، ولا عذر له فى ذلك ، وهذا الصنيع منه وضع للأشياء فى غير مواضعها ، وقد فعل ذلك فى مواضع كثيرة ليس هنا مجال ذكرها وتعدادها .

وابن الأثير الذى نقل العلوى هذا المبحث برمته من كتابه « المثل السائر » ـ كما ذكرنا ـ كان مدركا لحقيقة هذا الفن ، ولذلك جعله النوع الثالث من المقالة الثانية فى الصناعة المعنوية ، واليا الاستعارة والتشبيه ، وكذلك بدر الدين بن مالك الذى يعد كتابه « المصباح » أحد كتب البلاغة الأربعة التي رجع إليها العلوى في تأليف كتابه ، يعد أول من جعل « التجريد » فنا من فنون البديع المعنوى[1] .

---

(١) ينظر المصباح ص ٢٣٦ .

التجريد فى اللغة وفي مصطلح علماء البيان :

بدأ ابن الأثير ـ كما سبق ـ بالتعريف الاصطلاحي للتجريد ، ثم ثنى بتعريفه فى اللغة ، ولكن العلوى ـ رغبة منه في إخفاء الأخذ ـ عكس ، فبدأ بتعريفه في اللغة ثم ثنى بتعريفه في مصطلح علماء البيان ، ويريد بعلماء البيان ابن الأثير ، إذ هو صاحب التعريف الاصطلاحي ، واللغوى أيضا .

قال العلوى : اعلم أن التجريد فى أصل اللغة : هو إزالة الشيء عن غيره فى الاتصال [1]، فيقال : جردت السيف عن غمده[2] ، وجردت الرجل عن ثيابه ، إذ أزلتهما عنهما[3] ، ومنه قوله عليه السلام : « لا مدَّ ولا تجريد »[4] .

ويذكر المعنى الاصطلاحى للتجريد قائلا : « فأما فى مصطلح علماء البيان فهو مقول على : إخلاص الخطاب إلى غيرك ، وأنت تريد به نفسك ، وقد يطلق على اخلاص الخطاب إلى غيرك ، وأنت تريد به نفسك ، وقد يطلق على إخلاص الخطاب على نفسك خاصة دون غيرها »[5] .

* * *

سبق أن ذكرنا فى التعقيب على ما قاله ابن الأثير فى تعريف التجريد وتقسيمه وشواهده وفوائده ، أن تعريف ابن الزثير لا يشمل إلا القسم الأول من قسمى التجريد عنده وهو ما سماه « التجريد المحض » الذى عرفه بقوله : « أن تأتى بكلام هو خطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك » ، ولا يشمل القسم الثانى وهو التجريد غير المحض الذى عرفه بقوله : « هو خطاب لنفسك لا لغيرك » . وقد نظر

---

(١) كلمة « في الاتصال » حشو ، لأن معناها مفهوم مما تقدمها ، ولم يذكرها ابن الأثير .

(٢) الفعل « جرد » يتعدى إى المفعول الثاني بالحرف « من » لا « عن » ، في المثل السائر « من » .

(٣) الصواب : إذا نزعتهما عنهما .

(٤) ينظر الطراز جـ٣ ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، والمثل السائر جـ٢ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٥) الطراز جـ٣ ، ص ٧٣ ، وينظر المثل السائر جـ٢ ، ص ١٦٠ ، ١٦٣ .

العلوى فى تعريف ابن الأثير فرأى أنه لا يشمل قسميه ، فتصرف في التعريف ليكون شاملا للقسمين ، فالجزء الأول من تعريفه هو القسم الأول للتجريد ، والثانيى هو القسم الآخر منه

ومع ذلك فإن تعريف العلوى هذا للتجريد لا يعد تعريفا اصطلاحيا له ، وإنما هو تقسيم للتجريد .

وهو فى سبيل تغيير عبارة من ينقل كلامه نقلا حرفيا كاملا لا يتورع عن ارتكاب أى شيء يخفى أخذه وسرقته ، ولو كان يؤدى به ذلك إلى مخالفة اللغة وركاكة الأسلوب ، كما ترى فى كلامه السابق ، فإنه قال فى التعريف الاصطلاحيى أولا : فهو مقول على إخلاص الخطاب إلى غيرك » وقال ثانيا : « وقد يطلق على إخلاص الخطاب على نفسك » . فأتى بالحرف « إلى » فى الجزء الأول، وبالحرف «على» في الجزء الثاني، والفعل أخلص، ومصدره الإخلاص ، واسم فاعله مخلص ، إنما يتعدى إلى مفعوله الثانى باللام لا بإلى ولا بعلى ، قال تعالى : (مخلصين له الدين)[1] ، وقال : (فاعبد الله مخلصا له الدين)[2] ، (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون)[3] . ويقال : أخلص لله العمل . فما أقبح العبارتين ! والثانية أشد قبحا من الأولى .

لم يتعرض العلوى للفائدتين اللتين ذكرهما ابن الأثير للتجريد ، فقلنا : لعل الرجل رأى للتجريد فوائد أبلغ وأعظم من هاتين الفائدتين وسيذكرهما فى آخر مبحث التجريد ، ولكنه لم يفعل . ولعله لا يرى للتجريد فائدة .

أقسام التجريد :

لم يخرج العلوى عن تقسيم ابن الأثير للتجريد ، وكل ما فتح الله عليه أن استبدل كلمة « تقرير » بكلمة « قسم » وكلمة « تقريرين » بكلمة « قسمين » ، وسبب ذلك التغيير معروف وقد نبهنا عليه .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٩ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٣٩ .

قال : وقد استعمل على ألسنة الفصحاء كثيرا فصار مقولا على هذين الوجهين[1] ، فلنقصر الكلام فيه عليهما ، ونذكر له تقريرين :

التقرير الأول : فى التجريد المحض :

وهو أن تأتى بكلام يكون ظاهره خطابا لغيرك ، وأنت تريده خطابا لنفسك ، فتكون قد جردت الخطاب عن نفسك وأخلصته لغيرك ، فلهذا يكون تجريدا محققا ، وهذا كقول بعض الشعراء فى مطلع قصيدة له[2] ثم ذكر شعر الحيص بيص ، وقد سبق ذكر ابن الأثير وابن النقيب له .

وعن التجريد غير المحض قال : التقرير الثاني : في بيان التجريد غير المحض ، هو أن تجعل الخطاب لنفسك على جهة الخصوص دون غيرها .

والتفرقة بين هذا والأول ظاهرة ، فإنك فى الأول جردت الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك ، فإطلاق اسم التجريد عليه ظاهر ، بخلاف الثاني فإنه خطاب لنفسك لا غير .

وإنما قيل له تجريد لأن نفس الإنسان لما كانت منفصلة عن هذه الأبعاض والأوصال ، صارت كأنها منفصلة عنها ، فهلذا سمى تجريدا .

ثم ذكر البيتين اللذين مثل بهما ابن الأثير لهذا القسم وهما : بيت عمرو بن الإطنابة وبيت أحد شعراء الحماسة ، ثم أعقبهما ببيت الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وختم كلامه عن هذا القسم بقوله : « فهو فى هذه الأبيات كلها خطابه مقصور على نفسه دون غيره »[3] وهذا مأخوذ برمته من ابن الأثير[4] إلا ماأخطأ فيه .

---

(١) أي الوجهين اللذين أوردهما فى تعريفه الاصطلاحي . وقد سبق كلامه عنه .

(٢) ينظر الطراز جـ ٣ ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) ينظر الطراز جـ ٣ ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٤) ينظر المثل السائر جـ ٢ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ . .

* * *

وقد أخطأ العلوى فى التمثيل لهذا القسم من التجريد ببيت الأعشى ، إذ أنه من التجريد المحض الذى هو أن يخاطب الشاعر غيره ، ويريد بهذا الخطاب نفسه ، فهو كشعر الحيص بيص والمتنبى والصمة القشيرى ، وليس هو من وادى شعر عمرو بن الإطنابة والحماسى عند ابن الأثير .

ولكن الرجل ـ لأنه ينقل بدون وعى وبصيرة بما ينقله ـ رأى الشطر الأخير من بيت الأعشى مذكورا بعد بيت الحماسى في مناقشة ابن الأثير لأبى على الفارسى ، فظن أنه من شواهد التجريد غير المحض ، فلذلك مثل به .

ولم يتنبه إلى قول ابن الأثير فيما يحكيه عن أبى على : « ثم قال : وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه ، حتى كأنه يقاول غيره ، كما قال الأعشى :

*** وهل تطيق وداعا أيها الرجل ***

وهو الرجل نفسه لا غيره » .

العلوى ينسب إلى أبى على كلاما هو منه براء :

تبين لنا من مناقشة ابن الأثير لأبى على الفارسى فيما قاله في التجريد أن المناقشة تناولت أمرين لا ثالث لهما :

أحدهما : قول أبى على : « إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله ، فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا من الإنسان كأنه غيره » .

وثانيهما : أنه أدخل في التجريد ما ليس منه ، وهو ما كان نحو قولهم : « لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر » .

هذان الأمران هما اللذان ناقش ابن الأثير أبا على فيهما .

أما ما مثل به أبو على لما سماه ابن الأثير « التجريد المحض » وما قاله عن هذا النوع من التجريد ، فلم يكن موضع اعتراض ومناقشة من ابن الأثير ، بل ارتضاه ووافقه عليه ، قال : « والذى عندى فيه أنه أصاب فى الثاني ولم يصب في الأول ، لأن الثانى هو التجريد ، ألا ترى أن الأعشى جرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها »[1] .

وقال فى ختام مناقشته لأبى على : « فالخطأ توجه فى كلامه من وجهين :

أحدهما : أنه جعل حقيقة الإنسان عبارة عن خلقه .

والآخر : أنه أدخل فى التجريد ما ليس منه »[2] .

إذا ابن الأثير لم يناقش أبا على فى القسمين اللذين قسم التجريد إليهما ، وهما : التجريد المحض ، والتجريد غير المحض ، بل ارتضى ما قاله أبو على ـ كما ذكرنا ـ فيما سماه التجريد المحض ، أما ما سماه التجريد غير المحض فلم يناقشه

---

(١) ينظر المثل السائر جـ ٢ ، ص ١٦٤ .

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ، ص ١٦٧ .

فيه ، لأن أبا على لم يذكره ولم يمثل له ، لأن هذه الصورة التى حصر ابن الأثير التجريد فيها ، هي عند أبى على وتلميذه ابن جنى ومن سواهما من أهل العلم تشمل القسمين معا : المحض وغير المحض ، كلاهما يطلق عليه : « مخاطبة الإنسان نفسه » .

وأبو على ـ كما ذكرنا ـ لم يطلق على هذا الفنّ مصطلح التجريد ، ولم يفرد له في كتبه بابا خاص به ، ولم يقسمه لا إلى هذين القسمين ولا إلى غيرهما .

* * *

ولكن العلوى قد قول الرجل وهو أبو على الفارسى ما لم يقله ، ونسب إليه من الكلام ما لم يناقشه فيه ابن الأثير ، وادعى عليه دعوى باطلة ، هو برىء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

وهذا قد جاء فى قوله عقب كلامه السابق مباشرة : « فإذا تمهدت هذه القاعدة ، فهل يطلق اسم التجريد على النوع الثاني ـ أي التجريد غير المحض عند ابن الأثير ـ على جهة الحقيقة أم لا ؟ وفيه مذهبان :

المذهب الأول : أنه لا يطلق عليه اسم التجريد ، وإنما يقال له : نصف تجريد ، وهذا الذى زعمه ابن الأثير ، فإن التجريد الحقيقي هو ما ذكرناه[1] فى النوع الأول ـ وهو التجريد المحض ـ وهو أن تخاطب غيرك ، وتوجه الخطاب إليه ، وأنت تريد نفسك وأماما هذا حاله ـ وهو التجريد غير المحض ـ فإنك توجه الخطاب فيه إلى نفسك ، فلهذا كان نصف تجريد كما ترى ، والحقيقة هو أن الإنسان لا يخاطب نفسه وإنما يخاطب غيره .

المذهب الثاني : ان اسم التجريد يطلق عليه ، وهذا الذى ذكره أبو على الفارسى ، وهذا هو الأقرب »[2] .

---

(١) هو لم يذكر شيئا لا في التجريد المحض ولا فى غير المحض ، بل الذى ذكرهما هو ابن الأثير ، وهو مجرد ناقل ، ومردد لكلامه .

(٢) الطراز جـ ٣ ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

قلنا : هذا الذى نسبه العلوى إلى أبى على الفارسى تقول وافتراء وباطل ، لأن أبا على لم يقل هذا الذى زعمه العلوى ونسبه إليه ، وابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » وهو مرجع العلوى ـ لم يذكر فيه ذلك أثناء مناقشته لأبى على ، وقد تقدم كلام أبى على الذى ناقشه فيه ابن الأثير كاملا ، وهو أيضا بتمامه فى « خصائص » ابن جنى ، وليس فيه هذا الزعم المفترى من العلوى .

* * *

والعلوى يعلم علم اليقين الكلام الذى مثل به أبو على لهذه الصورة ، وهى ما كان التجريد فيها واقعا على صورة التشبيه ، ويدرى أيضا بما اعترض به ابن الأثير على أبى على فى جعله هذه الصورة من التشبيه ، زاعما بأن قولهم : « لئن لقيت فلانا لتلقين به أسدا ، ولئن سألته لتسألن منه البحر » ليس بتجريد ، بل هو تشبيه مضمر الأداة .

ولكنه قد تجنب ـ عن قصد ـ الحديث عن مناقشة ابن الأثير لأبى على في هذه الصورة من التجريد ، لأنه لا يعرف حقيقة هذه الصورة ، أهي من التجريد كما قال أبو على ؟ أم هي ليست بتجريد ، بل تشبيه مضمر الأداة كما قال ابن الأثير ؟

وادعى على أبى على بدلا من ذكر كلامه فى هذه الصورة من التجريد ومناقشة ابن الأثير له فيها ، ما لم يقله ، ومالم يذكره ابن الأثير مناقشا إياه فيه .

ثم اتجه بعد ذلك إلى تقرير وتحرير وبيان المراد من هذا الباطل الذى زعمه ونسبه إلى أبى على واصفا إياه بأنه الأقرب .

تقرير العلوى لما نسبه إلى أبى على :

نذكر مرة أخرى ما قاله العلوى فى المذهب الثاني الذى تضمن ما زعم أن أبا على قائله ، ثم نذكر عقبه ما جاء فى تقريره وبيان المراد منه .

قال : المذهب الثاني : أن اسم التجريد يطلق عليه ، وهذا هو الذى ذكره أبو على الفارسى ، وهذا هو الأقرب .

وتقريره[1] : هو أن الإنسان حقيقة ليس عبارة عن هذه الصورة المدركة من الأبعاض والأوصاف ، وإنما هو أمر وراء ذلك ، وللعلماء فيه خوض عظيم ، وتفاصيل طويلة ، وأقربهما مذهبان .

أحدهما : وهو الذى عول عليه المعتزلة ، وهو مذهب أئمة الزيدية : أن حقيقة الإنسان عبارة عن مجموع آسان[2] متصلة به تقصد بالمدح والذم ، والثواب والعقاب ، والأمر والنهي . . .

وثانيهما : مذهب أكثر الفلاسفة ، وهو أن الإنسان عبارة عن النفس الناطقة ، وهي أمر حاصل فى الإنسان ، ليست جسما ولا عرضا ، ولكنها حقيقة معقولة ، إلى غير ذلك من التفاصيل لمذهبهم .

فإذا كان الأمر كما قلنا فحاصل كلام الفارسى أن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيه ، فتعتقد أنه أمر خارج عن الإنسان فتخاطبه بالخطاب والغرض غيره ، فلهذا كان تجريدا مشبها للأول .

وهذا الذى يمكن أن يقرر عليه كلام الفارسى فى تسمية ما هذا حاله تجريدا .

وقد عاب ابن الأثيرعلى الفارسى هذه المقالة ووجه الخطاءعليه من وجهين .

الوجه الأول منهما : أنه قال : إن حقيقة الإنسان معنى كامن فيه هو حقيقته ، ولا وجه لذلك ، فإن المعقول من صفة الإنسان هو هذه البنية المشار إليها من غير تخصيص هناك فيها . وهذا فاسد ، فإن الحق ما قاله الفارسى ، كما حكيناه عن أهل الإسلام : المعتزلة وغيرهم .

الوجه الثاني : أنه قال : إنه قد أدخل فى التجريد ما ليس منه[3] .

وهذا فاسد أيضا ، فإنه إذا تحقق مما قلناه من أنّ حقيقة الإنسان أمر مخالف لهذه البنية المدركة المحسوسة عقل التجريد ، وكأنها هى المخاطبة بالخطابات ،

---

(١) أى تقرير مذهب أبى على فى أن اسم التجريد يطلق على « التجريد غير المحض » .

(٢) الآسان فى الأصل : قوى الحبل وطاقاته ، استعارها لقوى الإنسان .

(٣) هذا هو موضع الافتراء والتقول والزعم الباطل ، من كلامه .

والمراد غيرها ، كما قلناه فى التجريد المحقق من أن الخطاب موجه إلى غيرك ، وأنت فى الحقيقة تريد به نفسك [1] .

* * *

لله دَرُّ من قال :

سارتْ مشرِّقةً وسرتُ مغرِّباً شتان بين مشرِّقٍ ومغرِّبِ

ومن قال :

وإن كلام المرء فى غير كنهه لكا لنَّبْل تَهْوِى ليس فيها نصالُها

العلوى فى واد وابن الأثير في واد آخر ، فإن الأخير قد قصد بقوله : « إنه أدخل فى التجريد ما ليس منه » المثالين اللذين مثل بهما أبو على الفارسى لقوله : « إن العرب تعتقد . . » الخ . وأطلق عليهما اسم التجريد كما أطلقه على مخاطبة الإنسان نفسه ، فابن الأثير يرى أنهما ليسا من التجريد ، بل هما من قبيل التشبيه المضمر الأداة ، وأبو على يرى أنهما من التجريد ، ولا فرق بين التجريد فيهما والتجريد فى مخاطبة الإنسان نفسه .

والعلوى ـ سامحه الله ـ يذكر كلاما لم يقله الفارسى ولا نسبه إليه ابن الأثير ، وهو أنه يقصد التجريد غير المحض ، وهو ما عرفه ابن الأثير بقوله : « هو ما يكون خطابا لنفسك لا لغيرك » .

والعلوى لم يلتبس عليه الأمر ، وإنما هو على دراية كاملة بموضوع المناقشة ، ولكنه زور وحرف الكلم عن مواضعه ، وأتى بما هو من محض الخيال ، ولا حقيقة له .

والله هو المستعان .

---

(١) الطراز جـ٣ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

التجريد في « مصباح » بدر الدين بن مالك :

قبل أن نتناول بالتحليل مبحث « التجريد » في كتاب « المصباح » لبدر الدين بن مالك، أريد أن أشير إلى التجريد عند ابن أبى الإصبع المصرى (٥٨٥ ـ ٦٥٤هـ) وهو أحد علماء النقد والبلاغة الذى كان معاصرا لضياء الدين بن الأثير .

فقد درس ابن أبى الإصبع فى كتابه « تحرير التحبير » خمسة وتسعين فنا من فنون البلاغة ، غير أنه لم يكن من بين تلك الفنون « فن التجريد » ، بل لم يشر إليه مجرد إشارة في كتابه المذكور ، كما أنه لم يكن له ذكر فى كتابه الآخر وهو « بديع القرآن » ، والعجيب فى هذا الأمر أن « المثل السائر » كان أحد الأربعين كتابا التي وقف عليها ابن أبى الإصبع عند تأليف كتابه « تحرير التحبير ، وقد عرفنا مدى احتفال ابن الأثير وعنايته بهذا الفن البلاغى الممتاز .

* * *

بعدما عرفنا موقف ابن أبى الإصبع من « التجريد » نعود فنتحدث عن هذاالفن فى كتاب « المصباح » قائلين :

يعد بدر الدين بن مالك (٦٨٦ هـ) أول من أدخل مبحث التجريد فى « علم البديع » ، وأول من جعله أحد فنون الفصاحة المعنوية ، أي أنه محسن بديعي معنوي .

وقد بدأ الكلام عنه بتعريفه ، ثم ذكر له عدة شواهد ، أحدها من القرآن الكريم ، وثانيها من النثر ، والباقى من الشعر .

قال : التجريد : « أن تدل على أن الشيء بليغ فى وصف بدعوى ما يستلزمه صحة استخاص موصوف بها منه » كما تقول : « لى من فلان صديق حميم » ، على دعوى أنه قد بلغ من الصداقة مبلغا صح أن يستخلص منه مثله فيها . قال الله تعالى : (لهم فيها دار الخلد) وجهنم أعاذنا الله منها هي دار الخلد ، ولكن جرد منها مثلها ، وجعل معدا فيها للكفار تهويلا لأمرها .

ونحو قول الشاعر :

بنزوة لص بعدما مر مصعب بأشعث لا يُفْلى ولا هو يَقْمَلُ

الأشعث : هو مصعب نفسه ، ولكن فرط شعثه صحح أن ينتزع منه أشعث آخر ويجعل مارا معه . . . وقول الآخر :

وشوهاء تعدو بي إلى صارخ الوغى بمستلئم مثل الفنيق المرحل

أي تعدو بي ومعى من نفسى ـ لكمال استعدادها ـ مستلئم أي لا بس لأمة الحرب[1] .

* * *

هذا هو كل ما ذكره بدر الدني بن مالك في مبحث التجريد .

ومبلغ علمى أنه غير مسبوق بهذا التعريف الذى عرف به التجريد . وإن كان تعريف الخطيب القزويني للتجريد أجود من هذا التعريف وأحسن ، وأدق وأحكم صياغة ، فإنه قد نظر إليه عند وضع تعريفه ، ثم أعاد صياغته صياغة أخرى ، حيث إن جوهر التعريفين واحد ، وإن كان العبارة مختلفة . هذا على افتراض أن تعريف الخطيب له لا لغيره ، وإن كان لغيره ، فإن ذلك الغير هو الذى نظر في تعريف ابن مالك وصاغ منه تعريفه للتجريد ، وسيأتى كلام عن هذا بعد قليل إن شاء الله تعالى .

وقد أخذ الخطيب من بدر الدين بن مالك غير التعريف ، الشاهد النثرى وهو « لى من فلان صديق حميم » والآية الكريمة (**لهم فيها دارا لخلد**) ، والشاهد الشعرى الأخير ، وأخذ أيضا ما قاله بدر الدين بن مالك فى هذه الشواهد الثلاثة برمته[2] .

---

(١) المصباح ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) ينظر الإيضاح جـ ٢ ، ص ٥١٢ .

وأهم من كل هذا أن الخطيب أخذ منه جعله هذا الفن من فنون علم البديع وجعله أيضا أحد فنون البديع المعنوى ، فعلى خطى بدر الدين بن مالك فى ذلك سار الخطيب .

وهذه الشواهد الثلاثة التي أخذها الخطيب من « المصباح » هي شواهد لصور ثلاث من صور التجريد التي بلغت سبع صور عنده وعند من جاء بعده من البلاغيين .

فالشاهد النثرى وبيت الأخطل وهو : « بنزوة لص . . . » البيت ، شاهدان لصورة من صور التجريد وهي ما كان التجريد فيها بمن التجريدية الداخلة على المنتزع منه . والشاهد القرآني شاهد لصورة ثانية وهي ما كان التجريد فيها بدخول « فى » الظرفية على المنتزع منه ، والشاهد الشعرى الأخير وهو : « وشوهاء تعدوبي . . » البيت ، لصورة ثالثة ، وهي ما كان التجريد فيها بدخول باء المعية والمصاحبة على المنتزع ، وهذه الصورة الأخيرة هي التي تفرد بها بدر الدين بن مالك ، أما الصورتان اللتان قبلها فقد سبقه إليهما أبو على الفارسى وابن جنى .

ولا أدرى لم لم يذكر ابن مالك هذه الصورة المشهورة للتجريد والتى قصر ابن الأثير التجريد عليها وهي : مخاطبة الإنسان نفسه ، مع أن المتقدمين قد تكلموا عنها بدءا من أبى على الفارسى الذى يعد أول من أشار إلى التجريد فيها . ؟

* * *

وإذا عرفنا أن كتاب « المصباح في المعانى والبيان والبديع » ما هو إلا اختصار للقسم الثالث من « مفتاح العلوم » لأبى يعقوب السكاكى ، وأن أهم شيء أضافه إلى مختصره بالإضافة إلى أصله من كتاب المفتاح هو أنه توسع فى ذكر المحسنات البديعية ، إذ ذكر أربعة وخمسين لونا ، بينما ذكر السكاكى منها ستة وعشرين ، عرفنا سبب عدم ذكر بدر الدين بن مالك لإحدى صور التجريد وهي ما كان التجريد فيها واقعا على صورة التشبيه ، في مبحث التجريد وذكرها بدلا من ذلك فى مبحث « التشبيه » كما فعل صاحب أصل كتابه وهو أبو يعقوب السكاكى .

قال رحمه الله : واعلم أنه ليس بواجب التصريح في التشبيه بكلمته ولا بلفظ المشبه ، بل الواجب اذا ترك ان لا يكون مضروبا عنه صفحا مثله إذا قلت : « عندى أسد» فإنه استعارة، بخلاف « رأيت بفلان أسدا ، وما هو إنسان بل أسد » و « إذا أردت أسدا فعليك به»، فإنها تشبيهات لا فرق بينها إلا فى شأن المبالغة[1] .

وقد تكلمنا على هذه الصورة وغيرها من صور التشبيه والتجريد عند حديثنا عن التجريد في « مفتاح العلوم » للسكاكى .

---

(١) المصباح ص ١٢١ .

التجريد في التلخيص والإيضاح :

للخطيب القزوينى (٦٦٦ ـ ٧٣٩ هـ) كتابان في علوم البلاغة :

أحدهما : « تلخيص المفتاح » ، والثاني : « الإيضاح » ، وقد بحث الخطيب فن التجريد فى الكتابين المذكورين ، وذلك فى الضرب الأول الراجع إلى المعنى من ضربى علم البديع ، أى أن التجريد عنده محسن بديعى معنوى ، كما هو الحال عند بدر الدين بن مالك .

وما فى « التلخيص » من مبحث التجريد فى « الإيضاح » مع زيادة ثلاثة شواهد في ا لكتاب الأخير عما فى الكتاب الأول[١] .

بدأ الخطيب حديثه عن التجريد بتعريفه فقال : هو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمرٌ آخرُ مثلهُ فى تلك الصفة ، مبالغة فى كما لها فيه[٢] .

وقد أصبح تعريف الخطيب هذا هو التعريف المشهور للتجريد ، وظهر على سائر التعريفات الأخرى ، وصار الدارسون للبلاغة لا يذكرون تعريفا للتجريد سواه ، وما ذلك إلا لما اشتمل عليه هذا التعريف من دقة وإيجاز وحسن صياغة ، واشتماله على صور التجريد كلها ، ولفائدته البلاغية التى تتضمنها جميع صوره وأقسامه . ويظهر ذلك واضحا إذا قورن هذا التعريف بأصله المأخوذ منه ، وهو تعريف بدر الدين بن مالك ، وقد سبق الكلام على ذلك .

ولسلامة هذا التعريف من النقائص والمآخذ لم أجد أحدا من شراح التلخيص قد وجه إليه نقدا أواستدرك عليه شيئا .

ولوضوح هذا التعريف أيضا واشتماله على ماذكرنا لم أجد فى كلام شراح التخيص عنه ما هو جدير بالوقوف عنده إلا ما ذكره ابن يعقوب المغربى فى كتابه

---

(١) ينظر التلخيص ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، والإيضاح جـ ٢ ، ص ٥١٢ ، ٥١٣ .

(٢) الإيضاح جـ ٢ ، ص ٥١٢ .

« مواهب الفتاح في تلخيص المتفاح » مبينا المراد من كلمة « المبالغة » الواردة فى هذا التعريف ، أهي مبالغة على جهة الحقيقة ونفس الأمر ؟ أم هي مبالغة على سبيل الادعاء ؟ وقد قال فى ذلك كلاما حسنا فيه تنويه وإشادة ببلاغة هذا الفن ، وقيمته ومنزلته البلاغية بين الفنون البديعية الأخرى .

قال رحمه الله : (مبالغة لكمالها فيه) أي لادعائك كمال تلك الصفة في ذلك المتنزع منه ، وإنما قلنا لادعاء الكمال إشارة إلى أن إظهار المبالغة بالانتزاع لا يشترط فيه كونه كاملا فى تلك الصفة فى نفس الأمر ، بل الادعاء كاف سواء طابق الواقع أم لا .

ووجه دلالة الانتزاع على المبالغة المبنية على ادعائك الكمال : ما تقرر فى العقول من الأصل والمنشأ لما هو مثله في غاية القوة حتى صار يفيض بمثالاته ، فإذا أخذ موصوف باعتبار تلك الصفة من موصوف آخر بها فهم أنك بالغت في وصفه ، حتى صيرته في منزلة هي بحيث كانت فيه تلك الصفة منشأ لتفريع أمثالها عنها وإيجادها عنها ، فهي فيه كأنها تفيض بمثالاتها لقوتها كما تفيض الأشعة عن شعاع الشمس ، وكما يفيض الماء عن ماء البحر . فليفهم فإنه سهل ممتنع ، وبمثل هذا يعلم أن فنون هذا العلم لا يخلو سهلها كالبديع من وجود الدقائق ورعايتها فضلا عن صعبها كالبيان والمعانى[1] .

---

(١) شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٤٩ .

أقسام التجريد وشواهدها :

بعد أن عرف الخطيب التجريد ذكر أنه أقسام ، غير أنه لم يحددها ولم يترجم لها ، وإنما قال : « وهو أقسام : منها : نحو قولهم . . . ومنها نحو قولهم . . . الخ » . أي أنه اكتفى بأمثلة وشواهد تلك الأقسام ، وأوضح شراح التلخيص وذكروا اسم القسم الممثل له ، واقتصر الخطيب على ذكر مثال واحد أو مثالين لكل قسم من أقسام التجريد التى بلغت عنده سبعة أقسام ، أحيانا يشرح الشاهد ويوضح ما فيه من تجريد ، وأحيانا يكتفى بالتمثيل دون شرح وتوضيح .

ولم يزد شراح تلخيصه شيئا على ماذكره من أقسام وشواهد ، اللهم إلا ذكر اسم القسم الممثل له ، وتوضيح وبيان موضع الشاهد ، والمنتزع والمنتزع منه ومعنى الأداة التي وقع بها التجريد ، وغير ذلك مما يتطلبه تحليل الشواهد وبيان ما يريده الخطيب منها .

قال الخطيب رحمه الله : وهو أقسام :

منها : نحو قولهم : « لى من فلان صديق حميم » أي : بلغ من الصداقة مبلغا صح معه أن يستخلص منه صديق آخر »[1] ، وهو مأخوذ من «المصباح » كما ذكرنا قبل ذلك .

هذا القسم هو ما يكون التجريد فيه حاصلا بمن التجريدية الداخلة على المنتزع منه .

وقد اختلف في حقيقة « من » هذه ، فقيل : إنها بيانية ، وقيل : إنها ابتدائية ، ولكن المناسب لها حيث دخلت على المنتزع منه ـ كما في المثال السابق ـ أن تكون للابتداء ، لأن المنتزع مبدؤه ونشأته من المنتزع منه الذى هو مدخول « من » وأما جعلها للبيان فلا تفيد المبالغة ، فإن بيان شيء بشيء لا يدل على كمال المبين فى

(١) الإيضاح جـ ٢ ، ص ٥١٢ .

(٢) شروح التلخيص جـ ٤٣ ، ص ٣٥٠ .

الوصف ، فكأنه قيل : خرج من فلان إلىَّ وأتانى منه صديق آخر حميم » فقولهم لى من فلان صديق حميم » يفيد المبالغة فى وصف فلان بالصداقة[1] على الوجه الذى ذكره الخطيب .

* * *

وذكر القسم الثانى فقال : ومنها : نحو قولهم : « لئن سألت فلانا لتسألن به البحر »(*) ولم يعلق الخطيب على ما مثل به لهذا القسم من أقسام التجريد ، وهو ما يكون بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه ، وهذا هو التجريد الواقع على صورة التشبيه ، وهو أبلغ أقسام التجريد كلها ، كما ذكرنا ذلك عن الجرجانى والسكاكى .

فقائل هذا الكلام قد بالغ في اتصاف فلان هذا بالسماحة حتى صار بحيث ينتزع منه كريم آخر يسمى بحرا مثله فى الكلام .

والباء هذه حيث قامت قرينة على أن المراد بالبحر ما يجرد من مدخولها يناسبها من معانيها الأصلية أن تكون للمصاحبة ، أي لتسألن مع فلان حين سؤالك له بحرا آخر معه يسأل لكونه مثله فى الكرم .

ويحتمل أن تكون سببية ، أي لتسألن بسببه البحر ، بمعنى أنه كان سببا لوجود بحر اخر معه مجردا منه ، أي خارجا منه مثله يسأل معه[2] .

والقسم الثالث من أقسام التجريد هو ما عناه الخطيب بقوله : ومنها : نحو قول الشاعر :

وشوهاءَ تعدو بى إلى صارخ الوغى بمستلئم مثل الفنيق المرحل[3]

---

(١) شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٤٩ .

(٢) الإيضاح جـ ٢ ، ص ٥١٢ .

(٣) وشوهاء : أى وفرس شوهاء ، من شاهت الوجوه : قبحت ، وفرس شوهاء : صفة محمودة يراد بها سعة أشداقها . وقيل : أراد بها فرسا قبيحة الوجه لما أصابها من شدائد الحروب . والفنيق : هو الفحل المكرم عند أهله . والمرحل : المزعج ، من رحل البعير ، إذا أشخصه وأزعجه عن مكانه .

أي : تعدو بي ، ومعى من نفسى ـ لكمال استعدادها للحرب ـ مستلئم ، أي : لا بس لأمة[1] . وهذا الكلام مأخوذ أيضا من « مصباح » ابن مالك وهذا القسم الثالث من أقسام التجريد هو ما يكون حاصلا بدخول الباء التجريدية الداخلة فى المنتزع بعد دخول الأصلية فى المنتزع منه ، فقد بالغ الشاعر فى ملابسة لبس اللأئمة للحرب وملازمتها حتى صار بحيث يجرد منه مسلتئم اخر مثله فى ملابستها ولزومها استعدادا للحروب ، ولا يناسب هنا من معاني « الباء » إلا معنى المصاحبة[2] .

* * *

وذكر الخطيب مثال القسم الرابع من أقسام التجريد قائلا : ومنها : نحو قوله تعالى : (لهم فيها دارالخلد) فإن جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ هي دارالخلد ، لكنه انتزع منهامثلها ، وجعل معدا فيها للكفار ، تهويلا لأمرها[3] .

وهو كلام بدر الدين بن مالك فى « المصابح » كما سبق ذكره .

وهذا القسم من التجريد هو ما يكون بدخول « فى » على المنتزع منه ، و « في » هنا للظرفية ـ وقد تقدم كلام الأعلم الشنتمرى عنها ، وغيره من أهل العلم ـ فكأنه قيل : إن ثَمَّ دارا أخرى كانت فى هذه الدار التى هي دارهم الملازمة لهم التى لا ينفك عنهم عذابها ولا يضعف مع طول الخلود[4] وقد سبق الكلام عن التجريد فى هذه الآية .

* * *

وعن القسم الخامس وشاهده يقول الخطيب : ومنها : نحو قول الحماسى[5]

---

(١) الإيضاح جـ ٢ ، ص ٥١٢ .
(٢) ينظر شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٥١ .
(٣) الإيضاح جـ ٢ ، ص ٥١٢ .
(٤) ينظر شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .
(٥) هو قتادة بن مسلمة الحنفى وهذا البيت آخر شعر له فى ديوان الحماسة بشرح التبريزي جـ ٢ ، ص ١٣٩ .

فلئن بقيتُ لأرحلنَّ بغزوةٍ تحوي الغنائم أو يموتَ كريمُ[1]

وعليه قراءة من قرأ : (فإذا انشقت السماءُ فكانت وردةٌ كالدهان)[2] بالرفع ، بمعنى : فحصلت سماءٌ وردةٌ[3] .

ثم قال الخطيب : « وقيل : تقدير الأول : أو يموت منى كريم ، والثانى : فكانت منه وردة كالدهان ، وفيه نظر » .

والتجريد فى هذا القسم يكون حاصلا بدون توسط حرف أصلا ، ولكن يؤتى بالمنتزع على وجه يفهم منه الانتزاع بقرائن الأحوال بلا حرف يستعان به على إفادة التجريد .

فقد انتزع الشاعر فى هذا البيت من نفسه بقرينة التمدح بالكرم كريما مبالغة فى وصفها بالكرم لدلالة الانتزاع على أنه بلغ فى الكرم إلى حيث يفيض ويخرج عنه كريم آخر مثله فى الكرم ، ولذلك لم يقل : « أو أموت»[4] وفى الكلام تجريد والتفات ، التفات من حيث أقيم الظاهر الذى هو لفظ الكريم مقام المضمر ، فيكون فى الكلام انتقال من التكلم في أول البيت إلى الغيبة ، لأن مراد الشاعر من قوله كريم نفسه والأصل « أو أموت» وتجريد من حيث التعبير بصيغة الصفة لأجل المبالغة فى الكرم ، والالتفات لا ينافى التجريد بل هو واقع بأن يجرد المتكلم نفسه من ذاته فيجعلها شخصا آخر ثم يخاطبه [5] .

ويريد الخطيب بقوله : « وقيل : تقدير الأول : أو يموت منى كريم ، والثانى : فكانت وردة كالدهان » أن التجريد فى البيت وفى الآية من القسم الأول

---

(١) « أو » فى البيت بمعنى « إلا » على حدها فى قولك : « لأقتلن الكافر أو يسلم » أي : إلا أن يسلم ، والفعل بعدها منصوب بأن ، المعنى : إلا أن يموت كريم .

(٢) سورة الرحمن ، الآية ٣٧ .

(٣) الإيضاح جـ ٢ ، ص ٥١٣ . وهذه القراءة هي قراءة عبيد بن عمير . قال أبو حيان : وقرأ عبيد بن عمير : « وردة » بالرفع بمعنى : فحصلت سماء وردة » وهو من الكلام الذى يسمى التجريد ، كقوله : « فلئن بقيت لأرحلن بغزوة » البيت ، البحر المحيط جـ ٨ ، ص ١٩٥ .

(٤) ينظر شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٥٢ـ٣٥٣ .

(٥) ينظر شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٥٢ وما بعدها .

وهو ما يكون بمن التجريدية . والفرق بينه وبين الأول أن الأول تجريد بغير حرف وهذا تجريد بحرف محذوف . وقول الخطيب : « وفيه نظر » يريد أنه لا حاجة إلى هذا التقدير لحصول التجريد بدونه ولا قرينة عليه . وبهذا يسقط ما قيل : إنه أراد أن فى البيت نظرا لأنه من باب الالتفات من التكلم إلى الغيبة لأنه أراد بالكريم نفسه ، ورد بأن التجريد لا ينافى الالتفات ، بل هو واقع ، بأن يجرد المتكلم نفسه من ذاته ويجعلها مخاطبا لنكتة[1] .

* * *

وعن القسم السادس من أقسام التجريد قال الخطيب : « ومنها : نحو قوله :

يا خير من يركب المطىَّ ولا يشرب كأسا بكف من بخلا

ونحو قول الآخر :

إن تلقنى لاترى غيرى بناظرة تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد

وهذا القسم من التجريد هو ما يكون مدلولا فيه على المعنى المجرد بطريق الكناية ، وقد سبق الكلام على التجريد فى هذين البيتين ، وذلك عند الحديث عن التجريد عند المبرد والجرجانى[2] .

وينبغى أن يعلم أنه لا منافاة بين الكناية وكون المكنى عنه مجردا من غيره ، فإنه كما يصح التعبير عن المجرد بالتصريح يصح بالكناية ، فلو امتنع التعبير عن المجرد بالكناية لامتنع بالتصريح ـ وقد خفى هذا الأمر من كون التجريد لا ينافى الكناية على بعض البلاغيين فنفوا أن يكون في البيت كناية ، وقالوا إن فيه تجريدا فحسب[3] .

---

(١) ينظر المطول ص ٤٣٣ .

(٢) وينظر المطول ص ٤٣٣ ، وشروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٥٥ ، وأنوار الربيع لابن معصوم جـ ٦ ، ص ١٥٣ .

(٣) ينظر شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، وحاشية السيد الشريف على المطول ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، والتبيان للطيبى ص ٢٩٢ .

* * *

وعن القسم السابع والأخير من أقسام التجريد الذى قصر ابن الأثير التجريد عليه وهو مخاطبة الإنسان نفسه ، قال الخطيب : ومنها : مخاطبة الإنسان نفسه ، كقول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجلُ

وقول أبى الطيب :

لا خيل عندك تهديا ولا مال فليُسعد النطق إن لم يُسعد الحالُ

وهذه الأقسام السبعة التى ذكرها القزوينى للتجريد ، وما علق به على بعضها مسبوق إليه ممن تقدمه من النحويين والبلاغيين ، ولا جديد فيها ، كما أن تعريفه المحكم الدقيق للتجريد متأثر فيه بتعريف بدر الدين بن مالك كما ذكرنا قبل ذلك .

أيهما أخذ مبحث التجريد من الآخر ؟

للإمام أبى الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبى كتاب في ا لبلاغة وصناعة الإنشاء يسمى « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » .

ومن يقرأ مبحث التجريد فى هذا الكتاب وفى « الإيضاح » للخطيب القزويني ، يجد تطابقا تاما بينهما ، فما فى « الإيضاح » موجود بنصه فى « حسن التوسل إلى صناعة الترسل »[1]، وليس في الكتاب الأخير زيادة على ما في الإيضاح الا نصان من الشعر ذكرهما في آخر مبحث التجريد بعد ذكر بيت المتنبى : « لاخيل عندك تهديها ولا مال » البيت ، الذى كان آخر شواهد القزوينى للتجريد ، وكذلك الحلبى ذكر النصين عقب بيت المتنبى السالف الذكر .

أحدهما : قول الصمة القشيرى :

حننتَ إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتى الأمر طائعا وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا

وثانيهما : قول الحيص بيص :

إلام يراك المجد فى زي شاعر وقد نحلت شوقا فروع المنابر

الأبيات :

والنصان قد أخذهما المؤلف من « المثل السائر »[2] وقد سبق الكلام عليهما .

وما عدا هذا الذى ذكرناه فلا يوجد اختلاف بين المبحثين : مبحث التجريد فى الإيضاح ، ومبحث التجريد فى « حسن التوسل » ، بل إن القيل الذى ذكره الخطيب فى بيت الحماسى : « فلئن بقيت لأرحلن بغزوة » البيت ، وفى قراءة عبيد

---

(١) ينظر مبحث التجريد فى الإيضاح جـ ٢ ، ص ٥١٢ ـ ٥١٤ ، والتلخيص ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ وفي حس التوسل إلى صناعة الترسل ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧ .

(٢) ينظر حسن التوسل إلى صناعة الترسل ص ٢٨٧ ، والمثل السائر جـ ٢ ، ص ١٦١ .

ابن عمير : « فإذا انشقت السماء فكانت وردةً كالدهان » بالرفع ، بمعنى : فحصلت سماء وردة ، وهو : « وقيل : تقدير الأول : أو يموت منى كريم ، والثانى : فكانت منه وردة » ، ثم قوله : « وفيه نظر » ، نجده بنصه فى « حسن التوسل » .

قال الحلبى : « وقيل : تقدير الأول : أو يموت منى كريم ، والثانى : فكانت منها وردة كالدهان ، وفيه نظر »[1] ولا نجد أيضا اختلافا بين ألفاظ هذين النصين إلا فى كلمة « منها » فهى فى الإيضاح « منه » .

ولم نر الخطيب فى كتابيه قد ذكر اسم شهاب الدين الحلبى ، ولا كتابه وهو « حسن التوسل » ، وكذلك الحال مع الحلبى ، فإنه لم يرد في كتابه اسم صاحب « التلخيص » ، وإنما كان آخر من ذكر أسماءهم وكتبهم من البلاغيين : ابن الأثير وكتابه « المثل السائر » ، والسكاكى وكتابه « مفتاح العلوم » ثم من تقدمهم من البلاغيين ، وبدر الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ هـ لم يرد له ولا لكتابه « المصباح » ذكر فى « حسن التوسل » .

* * *

بعد هذا الذى ذكرناه نطرح سؤالا ثم نجيب عنه ، هذا السؤال هو : أي المؤلفين أخذ من الآخر مبحث التجريد بنصه ثم ضمنه كتابه ؟

الجواب : أرى أن الآخذ هو الخطيب القزوينى والمأخوذ منه هو الحلبى ، ويرجح ذلك أمران :

أحدهما : أن الحلبى أقدم مولدا ووفاة من القزويني ، فالإمام شهاب الدين الحلبى ولد سنة ٦٤٤ هـ ، وتوُفى سنة ٧٢٥هـ[2] .

أما الخطيب القزوينى فإنه ولد سنة ٦٦٦هـ ، وتوفى سنة ٧٣٩ هـ أي أن الحلبى ولد قبل الخطيب باثنتين وعشرين سنة ، وتوفى قبله بأربع عشرة سنة .

---

(١) حسن التوسل ص ٢٨٦ .

(٢) مقدمة تحقيق حسن التوسل ص ١٧ .

وثانيهما : أن أقدم نسخة من كتاب الحلبى « حسن التوسل » كتبت سنة ٧١٤هـ، أي فى حياة مؤلفها ، وقرئت عليه أيضا .

قال كاتبها : « قرأت هذا الكتاب جميعه على مصنفه العلامة الحجة البليغ القدوة شهاب الدين أبى الثناء محمود به سليمان بن فهد الحلبى ، وصح ذلك فى تسعة مجالس آخرها فى يوم السادس من شهر ربيع الآخر عام أربعة عشر وسبع مائة »[1] . إذا يكون هذا الكتاب قد ألف قبل السنة المذكورة ، أى قبل وفاة القزوينى بأكثر من خمس وعشرين سنة ، ويحتمل أن يكون الحلبى قد أتم تأليف كتابه قبل ذلك بسنين . فالفاصل الزمنى كبير بين تأليف « حسن التوسل » ووفاة صاحب « الإيضاح » مما يرجح أنه قد اطلع على الكتاب وأفاد منه ، ونقل ما نقل من مباحثه .

وعكس ذلك وهو أن يكون الحلبي هو الآخذ من « الإيضاح » مبحث التجريد ، غير معقول ، ولكن يحتمل أن يكون كل منهما قد أخذ هذا المبحث برمته من كتاب آخر لم يتسير لنا الاطلاع عليه .

ويبقى الاحتمال الأول هو الأرجح لما ذكرناه .

ولو أن الخطيب قد نص فى كتابيه « التلخيص » و « الإيضاح » على السنة التي ألفهما فيها ، أو نص على ذلك من ترجموا له ، أو من ذكر هذين الكتابين من المؤرخين لكتب المؤلفين ، لكان حكمنا قاطعا على من أخذ ومن أُخذ منه .

والله تعالى أعلم

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣ ، ٤٤ .

رأى الخطيب في التجريد المبنى على التشبيه :

سبق أن ذكرنا ما قاله عبدالقاهر الجرجانى وأبو يعقوب السكاكى فى التجريد الواقع في صورة التشبيه ، وتبين لنا أن الجرجانى والسكاكى يعدان هذا النوع من التجريد من أعلى صور التشبيه وأبلغه ، وألمحنا خلال ذلك إلى رأى الخطيب القزوينى فى هذاالتجريد .

وفى هذا المبحث نذكر ما يراه فى هذه الصورة من التجريد بالتفصيل .

فنقول : تحدث الخطيب عن هذاالتجريد فى موضعين من كتابه «الإيضاح» .

أحدهما : في مبحث الاستعارة وهو بصدد الكلام على نحو « زيد أسد » وآراء البلاغيين فى هذا التركيب أيعد استعارة أم تشبيها ؟ .

قال في ختام كلامه على هذا الموضوع : « وإن لم يكن اسم المشبه به خبرا للمشبه ، ولا في حكم الخبر ، كقولهم : « رأيت بفلان أسدا » ، و « لقيني منه أسد » سمى تجريدا ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

ولم يُسم استعارة ، لأنه إنما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة إذا جرى بوجه على ما يُدَّعى أنه مستعار له ، إما باستعماله فيه ، أو بإثبات معناه له ، والاسم فى مثل هذا غير جار على المشبه بوجه .

ولأنه يجىء على هذه الطريقة مالا يُتصور فيه التشبيه فيُظن أنه استعارة كقوله تعالى : (لهم فيها دار الخلد) إذ ليس المعنى على تشبيه جهنم بدار الخلد ، إذ هي نفسها دار الخلد ، وكقول الشاعر :

يا خير من يركب المطيَّ ولا يشرب كأسا بكف من بخلا

فإنه لا يتصور فيه التشبيه ، وإنما المعنى أنه ليس ببخيل .

ولا يسمى تشبيها أيضا ، لأن اسم المشبه به لم يجتلب فيه لإثبات التشبيه ، كما سبق ، وعده الشيخ صاحب المفتاح تشبيها ، والخلاف أيض لفظي [1] .

---

(١) الإيضاح جـ ٢ ، ص ٤١٣ .

* * *

كلام الخطيب السابق لقوله : « ولا يسمى تشبيها أيضا . . . الخ » كله فى بيان الفرق بين الاستعارة والتجريد المبنى على التشبيه ، وفى التعليل لعدم تسمية هذا النوع من التجريد استعارة .

وهذا الموضوع خارج عما أردنا تناوله فى هذا المبحث وهو رأى الخطيب فى التجريد الواقع فى صورة التشبيه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن هذا الموضوع قد تعرضنا له عند الكلام على التجريد فى « أسرار البلاغة » وكلام الخطيب السابق عن التجريد والاستعارة مأخوذ من كتاب الجرجانى المذكور فهو مسبوق إليه وما ذكره فى هذاالموضوع لا جديد فيه ، إذ هو مجرد مردد لكلام عبدالقاهر عنه في « الأسرار » .

أما قوله : « ولا يسمى تشبيا أيضا » الخ . فهو الذى يعنينا ، إذ قد ذكر فى هذا الكلام علة عدم تسمية التجريد المبنى على التشبيه : تشبيها ، بأن اسم المشبه به لم يجتلب فيه لإثبات التشبيه .

وقد عبر شراح التلخيص عن هذه العلة التى ذكرها ونفى من أجلها أن يكون هذا النوع من التجريد تشبيها بقولهم : « إن كون التشبيه الضمنى الذى فى بعض صور التجريد لا يسمى تشبيها اصطلاحا هو الأقرب ، إذ لم يذكر فيه الطرفان على وجه ينبىء عن التشبيه ، والإتيان فيه باسم المشبه به ليس لإثبات التشبيه ، إذ لم تقصد فيه الدلالة على ا لمشاركة ، وإنما التشبيه مكنون في الضمير لا يظهر إلا بعد تأمل . وذلك لأن فى نحو « لقيت من زيد أسدا » و « رأيت بزيد أسدا » تجريد أسد من زيد بجعل زيد أسدا بالغا غاية الجنس بحيث ينتزع منه أسد آخر ، وهو مبنى على ا لتشبيه المكنون في الضمير المفروغ عنه بالكلية ، وإنما يظهر ذلك التشبيه بعد التأمل في التجريد المدلول عليه بمن أو الباء التجريدتين »[1] .

(١) شروح التلخيص جـ٣ ، ص ٢٩٤ ، وحاشية الشيخ الإنبابى على الرسالة البيانية ص ٣٧ .

الموضع الثاني : الذى تحدث فيه الخطيب عن هذا النوع من التجريد كان فى مبحث التشبيه ، وفيه أخرج أيضا هذه الصورة من التشبيه الاصطلاحي ، وكان ذلك خلال تعريفه للتشبيه ، حيث إنه قد نص فى هذا التعريف على إخراجها هي والاستعارة من التشبيه .

قال : « التشبيه الدلالة على مشاركة أمر لأمر فى معنى ، والمراد : ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية ، والاستعارة بالكناية والتجريد »[1] .

ويقصد الخطيب بالتجريد تلك الصورة التى يكون المجرد فيها غير المجرد منه ، والتى قدسبق التمثيل لها . ففى هذه الصورة دلالة على مشاركة أمر لأمر فى معنى ، ولكن لا تسمى تشبيها اصطلاحيا ، وذلك للعلة التى ذكرها ـ والتى زادها شراح التلخيص والشيخ الإنباني في حاشيته توضيحا .

وأما ما كان المجرد هو نفس المجرد منه فليس داخلا فى الدلالة حتى يخرج ، وهذا يشمل باقى صور التجريد الست التى تقدم كلام الخطيب عليها ، وبيان ذلك : أن التجريد عند البلاغيين قسمان يجمعان صوره السبع :

الأول : أن ينتزع من الشيء شيء آخر مساو له فى صفاته للمبالغة في ذلك الشيء ، حتى صار بحيث ينتزع منه شيء آخر مساو له فى صفاته ، وهذا القسم يشمل كل تجريد ما عدا التجريد الواقع في صورة التشبيه .

والثاني : أن ينتزع المشبه به من المشبه للمبالغة فى التشبيه حتى صار المشبه بحيث يكون أصلا ينتزع منه المشبه به نحو « لقيت بزيد أسدا » فإنه لتجريد أسد من زيد ، وأسد مشبه به لزيد لا عينه ، ففيه تشبيه مضمر فى النفس ، وهذا هو المحترز عنه .

ولم يكتف شراح التلخيص بما ذكره الخطيب لإخراج هذا النوع من التجريد من التشبيه الصطلاحي ، بل أضافوا سببا آخر عبروا عنه بقولهم : « وإنما لم يسم

---

١) التلخيص ص ٢٣٨ ـ ٢٤٢ ، والإيضاح جـ ٢ ، ص ٣٢٨ .

تشبيها اصطلاحيا ، لأن التشبيه الاصطلاحى ما كان بالكاف ونحوها لفظا أو تقديرا »[1] أى أنه خرج بقولهم فى تعريف التشبيه : « هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى بالكاف ونحوه لفظا أو تقديرا لا على وجه الاستعارة التحقيقية والاستعارة بالكناية والتجريد » هذا النوع من التجريد .

وقيد « بالكاف ونحوه لفظا أو تقديرا » زاده على تعريف الخطيب السابق العلامة التفتازانى ، قال : « وينبغى أن يزاد فيه قولنا : بالكاف ونحوه لفظا أوتقديرا» [2] .

وكذلك صنع العلامة ا لصبان ، فقال الشيخ الإنبابى في شرح هذا القيد : « ثم إنه خرج بقوله : (بالكاف أو نحوها) الاستعارة والتشبيه الضمنى فى بعض صور التجريد كما مر ، فإن كلا منهما لا يسمى تشبيها اصطلاحا »[3] .

وقد أسقط القزويني هذا القيد ، وزاد فى التعريف ما ذكرناه وهو : لا على وجه الاستعارة والتجريد .

* * *

هذا هو مذهب الخطيب فى هذه الصورة من صور التجريد .

وقد ذكرنا فى مبحث « التجريد في المفتاح » أن السكاكى قد خالف القزوينى حيث صرح بأن هذا النوع من التجريد من قبيل التشبيه الاصطلاحى ، بل قد عدها من أبلغ أنواع التشبيه ، وأبلغ من التشبيه المظهر الأداة ، وكذلك هذاالنوع من التجريد عند الشيخ عبدا لقاهر ، ومن العجب أن الخطيب يذكر فقط السكاكى قائلا : « وعده الشيخ صاحب المفتاح تشبيها » ، ولا يذكر أن الشيخ عبدالقاهر قد

---

(١) ينظر شروح التلخيص جـ٣ ، ص ٢٩٤ ، والمطول ص ٣١١ .

(٢) المطول ص ٣١١ .

(٣) الرسالة البيانية ص ٣٧ .

عده ايضا تشبيها » وذلك في موضعين من « دلائل الإعجاز » لا في موضع واحد ، بل لم يعد هذا التجريد مجرد تشبيه فحسب بل عده أبلغ من التشبيه بالأداة « كأن » وسوى بينه وبين التشبيه البليغ ، وكأن الشيخ صاحب « التلخيص » لم يقرأ كلامه فى هذين الموضعين من « دلائل الإعجاز » .

ولم يدخل صاحب المفتاح والجرجانى قبله هذه الصورة من التجريد في التشبيه الاصطلاحى اعتباطا ، بل قد نظرا فيها فرأيا أنه قد ذكر فيها الطرفان ، فيمكن تحويلهما إلى هيئة التشبيه لولا قصد التجريد ، وعليه فلا يحسن خروجها من التشبيه ، ولا من التعريف الذى عرف به الخطيب التشبيه الاصطلاحى .

وقد صرح الشهاب الخفاجى فى « حاشيته على تفسير البيضاوى » بأن هذا النوع من التجريد من التشبيه البليغ ، لا من مطلق التشبيه ، وفى موضع آخر منها : بأن الشيخ عبد القاهر وغيره من أهل المعانى صرحوا بأنه أبلغ من التشبيه البليغ[1] .

وهذا ما رأيناه وأثبتناه ـ ولله الحمد على حسن توفيقه ـ في دراستنا للتجريد فى « دلائل الإعجاز » .

ومن عجيب أمر الخطيب أن يعد من التشبيه الاصطلاحى ما ذكره فى « أغراض التشبيه » بقوله : ومنها : تزيينه للترغيب فيه ، كما فى تشبيه وجه أسود ، بمقلة الظبى .

ومنها : تشويهه للتنفير عنه ، كما فى تشبيه وجه مجدور بسِلْحَة جامدة قد نقرتها الديكة »[2] ولا يعد هذه الصورة البديعة منه !!!

---

(١) حاشية الشيخ الإنبابى على الرسالة البيانية ص ٣٧ .

(٢) الإيضاح جـ ٢ ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

التجريد في التبيان للعلامة الطيبى :

درس العلامة شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطِّيبى (ت ٧٤٣هـ) التجريد فى كتابه « التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان » وذلك فى « علم البديع » في الباب الأول منه وهو ما كان التحسين فيه راجعا إلي المعنى ، ولم يضف إلى ما قاله المتقدمون أشياء جوهرية ذات قيمة كبيرة ، اللهم إلا إطلاق ألقاب ثلاثة على الأقسام الثلاثة التي قسم التجريد إليها ، لم يذكرها السابقون صراحة ، وإن كانوا يقصدونها فى كلامهم ، وكذلك أتى له بعدة شواهد من القرآن والشعر إضافة إلى شواهد أخرى سبق إليها . أما التعريف الاصطلاحى للتجريد فهو تعريف القزوينى .

وكانت طريقة الطيبى فى بحث التجريد مزيجا من طريقة ابن الأثير ، وبدر الدين بن مالك والقزوينى .

قال رحمه الله : التجريد هو : أن يُنتزع من متصف بصفة آخر مثله فيها مبالغة في كما لها فيه . كقولهم : مررت بالرجل الكريم والنَّسْمَة المباركة » جردوا من الرجل الكريم آخر مثله متصفا بصفة البركة وعطفوه عليه كأنه غيره[1] .

وهذا هو تعريف الخطيب كما ذكرنا ، ولم ينفرد إلا بهذا المثال .

أما الألقاب الثلاثة التى لقب بها الأقسام التى اقتصر على ذكرها فيتحدث عنها قائلا : وهو إما واقع على سبيل المجاز فى الخطاب بأن يجرد المتكلم نفسه من ذاته ويجعلها شخصا آخر ، ثم يخاطبه ، والغرض فيه إما توبيخها كما مر في بيت امرىء القيس ، وإما نصحها كما في قول عمرو بن الإطنابة :

« أقول لها وقد جشأت وجاشت » البيت . . . أو تحريضها . قال أبو الطيب : « لا خيل عندك تهديها ولا مال » البيت .

---

(١) التبيان ص ٢٨٨ .

أو تعريض بآخر كما فى قوله تعالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) (بل متعت هؤلاء) [1] على قراءة الفتح[2] اعترض سبحانه وتعالى على ذاته فقال : « بل متعتهم » حتى شغلهم عن كلمة التوحيد ، مثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ، ثم يقبل على نفسه فيقول : أنت السبب فى ذلك بمعروفك ، والغرض توبيخ المسىء لا تقبيح فعله [3] وهذا من التعريض المجازى .

أو لأن يتمكن المتكلم من إجراء ا لأوصاف على نفسه ، قال : « إلام يراك المجد فى زى شاعر » البيتان [4] وكل هذه الشواهد ، ما عدا الآية الكريمة ـ قد سبق الكلام عنها .

ويذكر الطيبى القسم الثاني من أقسام التجريد وهو ما كان واقعا في صورة التشبيه فيقول : أو على طريق التشبيه كما تقول : « لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد » و « لئن سألته لتسألن منه البحر » أى كالأسد والبحر ، فانتزع من المشبه نفس المشبه به كأنه هو ، وهو أبلغ أنواع التجريد ، لأن التجريد بعد التشبيه قال :

دعوتُ كليبا دعوة فكأنما دعوتُ ابن الطود أو هو أسرع

جرد من كليب شيئا يسمى ابن الطود ، وهو الصدى ، أو الحجر إذا تدهده ، يريد سرعة إجابته . وقال أبو العلاء .

ماجت نمير فهاجت منك ذالبد والليث أفتك أفعالا من النَّمِرِ

وقال الآخر [5] :

وبي ظبية أدماءُ ناعمةُ الصِّبا يَحار الظباءُ الغيدُ من لفتاتها

---

(١) سورة الزخرف الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) هي قراءة قتادة والأعمش ، ورواها يعقوب عن نافع . البحر المحيط جـ٨ ص ١٢ .

(٣) الكشاف جـ٤ ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، وينظر حاشية الشهاب جـ٧ ، ص ٤٤٠ .

(٤) ينظر التبيان ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٥) البيتان لعز الدين الأربلى ، وهما له في أنوار الربيع جـ٦ ، ص ١٥٤ ، وبلا عزو فى شرح عقود الجمان جـ٢ ، ص ١١٢ .

أعانق غصنَ البان من لين قدّها وأجنى جَنِيَّ الورد من وجناتها

أو على طريق الكناية كقراءة من قرأ : ﴿فهب لى مِن لدنك ولـيا يرثنى ويرث من آل يعقوب﴾ (أي : يرثنى به ، أو منه وارث ، وهو الوارث نفسه ، فكأنه جرد من الوالى وارثا [1] .

هذه الشواهد الشعرية قد انفرد الإمام الطيبى بالاستشهاد بها للتجريد ، وعنه أخذها من جاء بعده ، أما ما ذكره بعد ذلك من شواهد للقسم الثالث والأخير وهو ما كان التجريد فيه واردا على طريق الكناية فكلها قد سبق ذكرها .

ومما ينبغى أن يذكر للإمام الطيبى رحمه الله هو حكمه على التجريد المبنى على التشبيه بأنه أبلغ أنواع التجريد ، وهذا مالم يقل به أحد من البلاغيين بعد عبدالقاهر والسكاكى ، وهو يكون بذلك قد خالف ابن الأثير الذى أخرج هذا النوع من باب التجريد إلى باب التشبيه المضمر الأداة . وقد تابع الطيبى في أن هذه الصورة أبلغ أنواع التجريد مرددا عبارته الإمام السيوطي في « عقود الجمان » حيث قال :

* وأبلغ الأقسام ما قد ثنيا *

أي ما جعل ثاني الأقسام وهو التجريد المبنى على التشبيه [2] .

ونختم هذا المبحث بقولنا : إن العلامة الطيبى لم يضف على ما قاله السابقون شيئا فى المصطلح والمفهوم البلاغي للتجريد ، وإن كان قد أتى بشواهد له لم يسبق ذكرها .

---

(١) التبيان ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٢) ينظر شرح عقود الجمان جـ ٢ ، ص ١١٢ ، ١١٤ .

التجريد في البرهان للإمام الزركشى :

تعرض الإمام بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشى (٧٤٥ـ٩٧٤هـ) للتجريد فى كتابه « البرهان فى علوم القرآن » . وكان خيرا للإمام الزركشى عدم تعرضه للحديث عن هذا الفن البلاغي ، لأن ما ذكره فى مبحث التجريد فى الكتاب المذكور لا خير فيه .

فقد ذكر له تعريفا ركيكا غير مستقيم المعنى ، قد صاغه من المقولة المنسوبة إلى أبى على ا لفارسى وهي لابن جنى كما أثبتنا ذلك في موضعه وهي : « إن العرب قد تعتقد أن فى الشيء من نفسه معنى آخر ، كأنه حقيقته ومحصوله . وقد يجرى ذلك إلى ألفاظها لما عقدت عليه معانيها »[١] . من هذا اكلام صاغ الزركشى تعريفه للتجريد فقال : « وهو أن تعتقد أن فى الشيء من نفسه معنى آخر ، كأنه مباين له ، فتخرج ذلك إلى ألفاظه بما اعتقدت ذلك » كقولهم : « لئن لقيت زيدا لتلقين معه الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر » .

فظاهر هذا أن فيه من نفسه أسدا وبحرا وهو عينه هوالأسد والبحر ، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه[٢] . وهو كلام ابن جنى كما ترى .

ولم أر من درس « التجريد» فعرفه بهذا التعريف الضعيف المهلهل الصياغة . وعبارة أبى على الفارسى المنسوبة إليه ، لم يذكرها ابن جنى على أنها تعريف للتجريد ، بل لتعليل الانتزاع والتجريد ، وبيان لم كانت العرب تفعل ذلك ؟

ثم ذكر الإمام الزركشى بعد ذلك عدة شواهد له من القرآن الكريم بعضها التجريد فيه واضح وهي تلك الشواهد التى سبق أن تعرض السابقون له لذكرها ، وبعضها الآخر التجريد فيها غير واضح ولم يتعرض لها أحد ممن سبقه[٣] .

---

(١) الخصائص جـ ٢ ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

(٢) البرهان جـ ٣ ، ص ٤٤٨ .

(٣) ينظر البرهان جـ ٣ ، ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

وعلي كل فمبحث التجريد فى « البرهان » من أضعف المباحث البلاغية فيه ، وكما ذكرت ، لو أن الزركشى لم يتعرض له لكان خيرا فعل .

* * *

وقد بحث التجريد أيضا ابن حجة الحموى الشيخ تقى ا لدين أبو البركات المعروف بابن حجة الحموي (٧٧٧ ـ ٨٣٧ هـ) فى كتابه « خزانة الأدب » وعرفه تعريف القزوينى ثم ذكر فائدته البلاغية وهى : المبالغة ، ومثل له بعد ذلك بمثالين ، سبق أن مثل له بهما الإمام الطيبى ، وهو المثال النثرى الذى ذكره عقب تعريف التجريد ، والآخر من الشعر وهما بيتا عز الدين الأربلى : « وبي ظبية أدماء ناعمة الصبا » البيتان[1] .

(١) ينظر خزانة الأدب جـ ٢ ، ص ٤٣٨ .

التجريد عند الإمام السيوطى :

درس الإمام جلال الدين السيوطى (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) التجريد فى « الإتقان فى علوم القرآن » ، و « معترك الأقران في إعجاز القرآن » و « عقود الجمان فى المعانى والبيان » .

في الكتاب الأول عرف السيوطى التجريد بتعريف القزوينى ، وذكر له عدة شواهد من القرآن الكريم ، وذكر أيضا المثال النثري الذي مثل له به كل من الطيبى والحموى وهو « مررت بالرجل الكريم والنمسة المباركة » والشواهد القرآنية هي نفس الشواهد التى ذكرها للتجريد قبله الإمام الزركشى ، وأكثرها قد سبقت الإشارة إليه كما ذكرنا [١] .

أما فى « معترك الأقران » فقد أعاد نفس ما ذكره فى « الإتقان » من تعريف وشواهد [٢] .

وأما فى الكتاب الأخير وهو « عقود الجمان » وشرحه ، فقد قسم الإمام السيوطى فيه التجريد إلى قسمين :

الأول : أن ينتزع من أمر ذى صفة آخر مثله مبالغة .

والثانى : أن تجرد نفسك فتخاطبها كأنها غيرك [٣] .

---

(١) ينظر الإتقان جـ ٣ ، ص ٣٠٧ .

(٢) ينظر معترك الأقران جـ ١ ، ص ٣٩٦ .

(٣) ينظر شرح عقود الجمان جـ ٢ ، ص ١١١ ، ١١٢ .

التجريد في أنوار الربيع لابن معصوم :

لصدر الدين السيد علي بن نظام أحمدبن محمدبن معصوم الحسن الحسيني المولود سنة ١٠٥٢ والمتوفى حدود سنة ١١٢٠ هـ بديعية ابتدأها بقوله :

حسن ابتدائى بذكرى جيرة الحرم له براعة شوق تستهل دمى

وقد شرح هذه البديعية شرحا وافيا سماه « أنوار الربيع فى علم البديع » .

وقد اخترت هذه البديعية وشرحها من بين سائرالبديعيات التي نظمت بعد بديعية ابن حجة الحموى للتعرف على منهج صاحبها فى دراسة مصطلح التجريد ، لأن ابن معصوم قد سلك فى هذا الشرح لبديعيته منهج ابن حجة في الإكثار من الشواهد القديمة والحديثة ، كما ناقش كثيرا من علماء البلاغة السابقين ، ونقل عنهم ، وعزا ما نقل إلى أصحابه ، ولهذا يعد ابن معصوم أنضج أصحاب البديعيات بعد ابن حجة ، كما قدم لأنوار الربيع بمقدمة ذكر فيها شيئا مختصرا عن تاريخ المذهب البديعى فى الأدب العربى[١] .

وتعد دراسة ابن معصوم لمصطلح التجريد خير دراسة بعد دراسة الخطيب القزوينى لهذا الفن البلاغى وهو وإن كان قد سلك منهج القزوينى في بحثه إلا أنه اتبع طريقة مخالفة لطريقته ، إذ بدأ ببيان معنى التجريد في اللغة ثم ثنى بالتعريف الاصطلاحى له وبعد ذلك بدأ فى ذكر أقسامه السبعة التى اكتفى الخطيب فيهابذكر شاهد القسم دون ترجمة له ، ولكن ابن معصوم تحاشى هذا النقص فى دراسة الخطيب لتلك الأقسام ، فذكر ترجمة كل قسم ثم مثل له وهذا البحث مغاير أيضا لبحث الإمام الطيبى الذى اكتفى بذكر ثلاثة أقسام فحسب من أقسامه السبعة التى ذكرها القزوينى ، وتجنب أيضا مسلك صاحب « خزانة الأدب » ابن حجة الحموى

---

(١) ينظر أنوار الربيع فى علم البديع جـ ١ ص ٢ . والصور البديعية بين النظرية والتطبيق القسم الأول ص ٣١٢ .

الذى اقتصر فى كلامه على التجريد بتعريفه وذكر مثالين له من أمثلة الإمام الطيبى دون التعرض لذكر قسم واحد من أقسامه السبعة .

* * *

قال ابن معصوم مبينا معنى ا لتجريد في اللغة والاصطلاح التجريد : مصدر جردته من ثيابه ، إذا نزعتها عنه .

وفى الاصطلاح : « أن ينتزع من أمر متصف بصفة أمر آخر مثله فى تلك الصفة مبالغة لكمالها فيه » حتى كأنه بلغ من الاتصاف بها مبلغا صح أن ينتزع منه أمر آخر موصوف بتلك الصفة »[1] .

وهذا التعريف الاصطلاحى من ابن معصوم للتجريد هو تعريف القزوينى ، وقد أتبعه بالشرح والتوضيح .

ثم أخذ بعد ذلك فى ذكر وتوضيح أقسامه وهى :

الأول : أن يكون بـ « من » التجريدية الداخلة على المنتزع منه مثل : « لى من فلان صديق حميم » أى قد بلغ من الصداقة مبلغا صح معه أن يستخلص منه صديق آخر مثله فيها . ومنه قول الشاعر : « ولى ظبية أدماء ناعمة الصبا » البيتان .

وقول أبى العلاء : « هاجت نمير فهاجت منك ذا لبد » البيت .

وهذان الشاهدان قد سبق ذكرهما عند الحديث عن التجريد في « التبيان » للإمام الطيبى ومنه أخذهما ابن معصوم .

الثانى : أن يكون بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه مثل : « لئن سألت فلانا لتسألن به البحر » بالغ فى ا تصافه بالسماحة حتى انتزع منه بحرا فى السماحة .

ومنه قول الشاعر : « دعوت كليبا دعوة » البيت .

---

(١) أنوار الربيع جـ٦ ، ص ١٥٣ .

وهو من شواهد الإمام الطيبى للتجريد ، وكذلك ما علق به على البيت .

الثالث : أن يكون بدخول باء المعية والمصاحبة فى المنتزع كقوله : « وشوهاء تعدو بي إلى صارخ الوغى » البيت . وهو من شواهد « المصباح » و « الإيضاح » .

الرابع : أن يكون بدخول « فى » على المنتزع منه كقوله تعالى : (**لهم فيها دار الخلد**) . وهذا الشاهد القرآنى ، وما ذكره ابن معصوم من كلام في بيان التجريد فيه مأخوذ من « الإيضاح » للقزوينى .

الخامس : أن يكون بلا توسط حرف كقول قتادة بن مسلمة الحنفى : « فلئن بقيت لأرحلن بغزوة » البيت . وهذا البيت وما علق به عليه مأخوذ من « الإيضاح » وشروح التلخيص .

السادس : أن يكون بطريق الكناية كقول الأعشى :

يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأسا بكف من بخلا

أي : يشرب الكأس بكف جواد ، فقد انتزع من الممدوح جوادا يشرب هو الكأس بكفه على طريق الكناية ، لأنه إذا نفى عنه الشرب بكف البخيل فقد أثبت له الشرب بكف كريم ، ومعلوم أنه يشرب بكفه فهو ذلك الكريم .

وهذا الكلام بنصه مأخوذ من « المطول » للتفتازاني[1] .

السابع : أن يكون بطريق خطاب المرء لنفسه كقول المتنبى : « لا خيل عندك تهديها ولا مال » البيت . كأنه انتزع من نفسه شخصا اخر مثله فى فقد الخيل والمال والمال والحال الذي هو الغنى[2] .

وهذا الذى علق به على بيت المتنبى مأخوذ بنصه من « المطول »[3] .

---

(١) ينظر المطول ص ٤٣٣ .

(٢) ينظر أنوار الربيع فى أنواع البديع جـ٦ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣) المطول ص ٤٣٤ .

وقد ساق ابن معصوم هـذه الأقسـام السبعـة علـى ترتيب ماهـي عليه فـى « الإيضاح » كـما أن شـواهدها مأخوذة منه ، وما زاده على شـواهد الكتـاب المذكور فهو من « التبيان » للطيبى .

إذا لا جديد فى تلك الأقسـام ولا فى شـواهدها ، ولكن مـا ينبغى أن يذكر لابن معصوم هو أن هذه الأقسام قد جمعت ما قاله السابقون في أقسام التجريد .

التجريد بين التحسين الذاتي والعرضي :

وليكن هذا الموضع مسك الختام لبحث « مصطلح التجريد : دراسة فى التاريخ والمفهوم البلاغى » .

أقول : إذا أنعمنا النظر في ما قاله البلاغيون فى مبحث التجريد فإننا سنجد أقسامه وشواهده التى ذكرها الخطيب ومن جاء بعده ، منها : ما يندرج تحت المبالغة وهو القسم الأول الذى مثل له الخطيب بقولهم : « لى من فلان صديق حميم » ، وكذلك القسم الذى يكون التجريد فيه بـ « فى » الظرفية كقوله تعالى : « لهم فيها دار الخلد » .

ومنها : ما يدخل تحت إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر كقول الشاعر :

وشوهاء تعدو بى إلى صارخ الوغى بمستلئم مثل الفنيق المرحل

فهذا من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر .

ومنها : قول قتادة بن مسلمة الحنفى الذى مثل به الخطيب للتجريد الذى يكون بدون توسط حرف ، وهو :

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة تحوى الغنائم أو يموت كريم

وهو من قبيل الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، مع التجريد أيضا .

ومنها : ما ينطبق عليه التشبيه وهو القسم الثانى من أقسام التجريد عند الخطيب كقولهم : « لئن سألت فلان لتسألن به البحر » وما شابهه .

ومنها : ما هو تجريد والتفات ، تجريد عند جمهور البلاغيين ، والتفات عند الزمخشرى والسكاكى ، كقول المتنبى :

لا خليل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

ومنها ما ينطوى تحت لواء الكناية كقول الأعشى :

يا خير من يركب المطي ولا يشرب كأسا بكف من بخلا

وقد تابع الخطيبُ بدر الدين بن مالك فى عد « التجريد » محسنا بديعيا معنويا ، إذ أن الأخير يعتبر أول من أدخل التجريد فى « علم البديع » ودرسه فى المحسنات البديعية المعنوية .

وقد جارى الخطيب في طريقته هذه شراح تلخيصه ومن جاء بعدهم من البلاغيين ، مقلدين ، فركبوا فى سبيل تأويلها كل صعب وجموح ، ومن العجب فى عدهم التجريد ـ متابعة لصاحب التلخيص ـ مجرد محسن معنوى عرضى لا ذاتى ، وقول أحدهم وهو ابن يعقوب المغربى ـ بعد أن أفاض فى بيان حقيقة المبالغة فى هذا الفن فى قولهم : « لى من فلان صديق حميم » ـ : « . . فليفهم فإنه سهل ممتنع ، وبمثل هذا يعلم أن فنون هذا العلم ـ علم البلاغة ـ لا يخلو سهلها كالبديع من وجود الدقائق ورعايتها فضلا عن صعبها كالبيان والمعانى »[1] .

ولم يخرج عن إجماع هؤلاء الشراح سوى العصام[2] حيث يقول بعد شرح تعريف الخطيب للتجريد : « وبعد يتجه أنه كما أن التجريد يفيد المبالغة فالاستعارة أيضا تفيد المبالغة ، فما الذى أوجب جعل الثانى من دواخل البلاغة والأول من توابعها ؟ وأنه لا معنى لجعل التجريد مقابلا للمبالغة المقبولة وعد كل منهما محسنا برأسه ، بل هو أيضا من صور المبالغة .

ثم قال : ولا يخفى أن اعتبارنا أقرب وأدق ، فاحفظه قاطعا ربقة التقليد ، فإنه أحب وبالمصلحة أوفق »[3] .

---

(١) ينظر شروح التلخيص جـ ٤ ، ص ٣٤٩ .

(٢) هو إبراهيم بن محمدبن عرب شاه عصام الدين من سلالة أبى إسحاق الإسفراييني ، من مؤلفاته ـ وهي كثيرة ـ شرح التلخيص الذى سماه « الأطول » توفى رحمه الله سنة احدى وخمسين وتسعمائة .

(٣) الأطول جـ ٢ ، ص ٢٠٤ ، وينظر الصبغ البديعي ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

* * *

وليت شعرى أكان احتفاء أبى على الفارسى وتلميذه أبى الفتح عثمان بن جنى وضياء الدين بن الأثير ، ووصفهم لهذا الفن بالحسن والغرابة والطرافة ، من أجل تحسينه العرضى لمعنى الكلام الواقع فيه ؟ كلا ، فأبو على وابن جنى من أهل المعانى الذين لا يحفلون بالتحسين والتزيين والزخرف العرضى ، لا للألفاظ ولا للمعانى ، وما خطر ببالهما وهما يتكلمان عن هذا الفن أن تحسينه للمعنى الحاصل فيه عرضى لا ذاتي ، ولو أنهما كانا سيعلمان ما سيصنعه ابن مالك والخطيب ومن جاء بعدهما من البلاغيين فى التجريد من جعله محسنا بديعيا عرضيا ما أطنبوا في الإشادة والتنويه به ، ولا أفرد له ابن جنى بابا خاصا به في أعظم كتبه وهو « الخصائص » بل ولا كانا قد درساه من أصله ومثلهما ابن الأثير الذى أفرد له أيضا بابا واليا بابي الاستعارة والتشبيه ، وهما فنان متعلقان بالمعانى لا بالألفاظ ، وما فعل ذلك إلا لأنه كان يرى أن تحسين التجريد للمعنى ليس عرضيا وإنما هو ذاتى مثله مثل أي فن من فنون البلاغة الأخرى .

وقد رأينا كيف أن الخطيب لم يسمح بخروج صورة واحدة منه إلى علم البيان ، تلك الصورة التي وضعها عبد القاهر والسكاكى فى أرفع محل بين صور أخرى من روائع التشبيه ، وهى الصورة المبنية على التشبيه ، وحكم القزوينى على جميع صورالتجريد بأن تحسينها للمعنى عرضى لاذاتي . .

وبعد . . .

فلعلى بذلك البحث الذى تتبع مصطلح « التجريد » تتبعا تاريخيا عبر قرون عدة ، راصدا تطور هذا المصطلح منذ أن ظهر فى صورة مثال نحوى لسيبويه ، حتى اكتمل وأصبح فنا من فنون البلاغة ذات القيمة الأدبية والمنزلة الرفيعة بين فنونها الأخرى ، أكون قد وفقت فى الغاية التى كنت أصبو إليها من كتابة هذا البحث ، وهي دراسة تاريخ ذلك الفن بدءا من أول كلمة إلى آخر كلمة قيلت

فيه ، ودراسة مفهوم ذلك المصطلح ، وبيان ما حدث من تطور له عبر ذلك التاريخ الممتد من القرن الثانى إلى القرن الثانى عشر الهجرى .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام النبيين والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المصادر والمراجـــــع

١ ـ الإتقان فى علوم القرآن جلال الدين السيوطى تحقيق محمدأبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ م .

٢ ـ أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجانى تحقيق محمود شاكر دار المدنى بجدة الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م .

٣ ـ الأطول عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عربشاه الإسفراييني تركية ١٢٨٤هـ

٤ ـ إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج تحقيق إبراهيم الإبياري دار الكتاب اللبناني بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٥ ـ أنوار الربيع فى أنواع البديع على صدر الدين بن معصوم المدنى تحقيق شاكر هادى شكر ـ النجف الأشرف ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

٦ ـ أنوار الربيع فى أنواع البديع طبع حجر ١٠٩٣ هـ .

٧ ـ الإيضاح الخطيب القزوينى تحقيق الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجة . دار الكتاب اللبناني ، بيروت الطبعة الخامسة . ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

٨ ـ البحرالمحيط أثير الدين أبو حيان الأندلسي مطبعة النصر الحديثة بالرياض .

٩ ـ البرهان في علوم القران بدر الدين الزركشى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثانية ، دار الفكر بيروت ، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨م .

١٠ ـ تاريخ علوم البلاغة أحمد مصطفى المراغى مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م .

١١ ـ التبيان في إعراب القرآن أبو البقاء العكبرى . تحقيق علي محمد البجاوى ، دار الجيل بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦ م .

١٢ ـ التبيان في علم المعانى والبديع والبيان شرف الدين الطيبى . تحقيق الدكتور هادى عطية مطر الهلالي . عالم الكتب ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

١٣ ـ التلخيص فى علوم البلاغة الخطيب القزوينى شرح عبد الرحمن البرقوقى . دار الكتاب العربي . بيروت لبنان .

١٤ ـ حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية للصبان المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٥ هـ.

١٥ ـ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى الشهاب الخفاجى . دار صادر بيروت .

١٦ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل شهاب الدين محمود الحلبى تحقيق الدكتور أكرم عثمان يوسف بغداد ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

١٧ ـ الحجة للقراء السبعة لأبى على الفارسى تحقيق على النجدى ناصف وآخرين طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ م .

١٨ ـ خزانة الأدب ابن حجة الحموى شرح عصام شعيتو دار مكتبة الهلال بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٩٨٧ م

١٩ ـ الخصائص أبو الفتح عثمان بن جنى تحقيق محمد على النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان .

٢٠ ـ الدر المصون السمين الحلبى تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط ، دارالقلم دمشق الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٢١ ـ دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجانى تحقيق محمود شاكر ، مكتبة الخانجى بالقاهرة .

٢٢ ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى العلامة الألوسى دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان .

٢٣ ـ شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي عالم الكتب بيروت .

٢٤ ـ شروح التلخيص . الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٧ هـ .
٢٥ ـ شرح عقود الجمان فى المعانى والبيان عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد العمرى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر الطبعة الثانية ٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م .
٢٦ ـ الصبغ البديعي في اللغة العربية الدكتور أحمد إبراهيم موسى دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م .
٢٧ ـ الصورالبديعية بين النظرية والتطبيق الدكتور حفنى محمد شرف مكتبة الشباب بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م .
٢٨ ـ الطراز يحيى بن حمزة العلوى دار الكتب العلمية . بيروت .
٢٩ ـ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه الحسن بن رشيق القيرواني تحقيق الكدتور محمدقرقزان دارالمعرفة . بيروت .
٣٠ ـ الفلك الدائر على المثل السائر ابن أبى الحديد (الجزء الرابع من المثل السائر) تحقيق الدكتور أحمد الحوفى والدكتور بدوى طبانه دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة .
٣١ ـ الكامل أبو العباس المبرد تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م .
٣٢ ـ كتاب سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه تحقيق عبد السلام محمد هارون الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م
٣٣ ـ كتاب البديع عبد الله بن المعتز تحقيق كراتشكو فسكى
٣٤ ـ كتاب الشعر لأبى على الفارسى تحقيق وشرح الدكتور محمود محمد الطناحى مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

٣٥ ـ كتاب الصناعتين أبوهلال العسكرى تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم طبعة الحلبى بالقاهرة .

٣٦ ـ الكشاف محمود بن عمر الزمخشرى نشر دار الريان للتراث الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ـ ٩١٨٧ م .

٣٧ ـ المثل السائر ضياء الدين بن الأثير تحقيق الدكتور أحمد الحوفى والدكتور بدوى طبانه دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة .

٣٨ ـ المحتسب أبو الفتح عثمان بن جنى تحقيق على النجدى ناصف وآخرين دار سزكين للطباعة والنشر ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٣٩ ـ المسائل الحلبيات أبو على الفارسى تحقيق الدكتور حسن هنداوى دار القلم دمشق الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٤٠ ـ المسائل المشكلة المعروفة بالغدايات أبو على الفارسى تحقيق صلاح الدين عبد الله السنكارى وزارة الأوقاف العراقية . بغداد ١٩٨٣ م .

٤١ ـ المصباح فى المعانى والبيان والبديع بدر الدين بن مالك تحقيق الدكتور / حسنى عبد الجليل يوسف طبع ونشر مكتبة الآداب بالقاهرة .

٤٢ ـ المطول على التلخيص سعد الدني التفتازانى مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ .

٤٣ ـ معترك الأقران فى إعجاز القرآن جلال الدين السيوطى تحقيق على محمد البجاوى . دار الفكر العربى .

٤٤ ـ معجم الأدباء ياقوت الحموى الرومى تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الغرب الإسلامي بيرورت الطبعة الأولى ١٩٩٣ م .

٤٥ ـ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها الدكتور أحمد مطلوب بغداد ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ م .

٤٦ ـ مفتاح العلوم أبو يعقوب السكاكى الطبعة الأولى ، مصطفى البابى الحلبى ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م .

٤٧ ـ مقدمة ابن النقيب فى علم البيان والمعانى والبديع وإعجاز القرآن جمال الدين محمد بن سليمان البلخى الشهير بابن النقيب تحقيق الدكتور زكريا سعيد على نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .

٤٨ ـ المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع القاسم السجلماسى تحقيق علال الغازى مكتبة المعارف بالرباط . الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨٠م .

٤٩ ـ النكت فى تفسير كتاب سيبويه الأعلم الشنتمرى تحقيق الدكتور زهير عبد المحسن سلطان معهد المخطوطات العربية الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٥٠ ـ نزهة الألباء فى طبقات الأدباء أبو البركات عبد الرحمن بن الأنبارى تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى مكتبة المنار الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٥١ ـ كتاب المعانى الكبير فى أبيات المعانى عبد الله بن مسلم بن قتيبة . دار الكتب العلمية . بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م .

٥٢ ـ أبو على الفارسى الكدتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى دار المطبعات الحديثة . جدة المملكة العربية السعودية . الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة
مقدمة	٢
الفصل الأول	
مصطلح التجريد فى بحوث اللغويين والنحاة	٥
التجريد عند سيبويه	٨
الأعلم يفرس كلام سيبويه على التجريد	١١
التجريد عند أبى العباس المبرد	١٦
التجريد عند أبى على الفارسي	٢٠
ابن جنى يفرد التجريد بباب خاص به	٣١
معنى التجريد عند ابن جنى	٣٣
التجريد ضرب من العربية غريب لطيف وطريف	٤٠
التجريد فى إعراب القرآن	٥٠
الفصل الثاني	
مصطلح التجريد فى بحوث البلاغيين	٥٤
هل تعرض البلاغيون قبل الجرجانى لمصطلح التجريد	٥٥
التجريد عند عبد القاهر الجرجانى	٥٨
التجريد فى أسرار البلاغة	٦٠
التجريد في دلائل الإعجاز	٦٦
التجريد فى مفتاح العلوم للسكاكى	٧٤
التجريد فى المثل السائر	٨٠
حد التجريد وفائدته	٨٢
أقسام التجريد وشواهدها	٨٥
تعقيب	٨٧

الموضوع	صفحة
القائل ابن جنى لا أبو على الفارسى	٩٤
مناقشة ابن الأثير لأبى على الفارسى	٩٨
وجه آخر أبطل به ابن الأثير كلام أبى على	١٠٤
عودة إلى مفهوم التجريد عند ابن الأثير	١٠٦
أيا ما كان يعنى أبو على بمقولته فهو مخطىء	١٠٨
ما المخطىء أبو على	١٠٩
من تأثر بابن الأثير فى بحث التجريد	١١١
التجريد فى مقدمة ابن النقيب	١١٢
التجريد فى الطراز للعلوى	١١٣
التجريد صنف من أصناف البديع اللفظى	١١٤
التجريد فى ا للغة وفى مصطلح علماء البيان	١١٦
العلوى ينسب إلى أبى على كلاما هو منه براء	١٢٠
التجريد في « مصباح » بدر الدين بن مالك	١٢٥
التجريد في التلخيص والإيضاح	١٢٩
أقسام التجريد وشواهدها	١٣١
أيهما أخذ مبحث التجريد من الآخر ؟	١٣٧
رأى الخطيب فى التجريد المبنى على التشبيه	١٤٠
التجريد فى « التبيان » للعلامة الطيبي	١٤٥
التجريد في « البرهان » للإمام الزركشى	١٤٨
التجريد عند الإمام السيوطى	١٥٠
التجريد فى أنوار الربيع لابن معصوم	١٥١
التجريد بين التحسين الذاتى والعرضى	١٥٥
فهرس المصادر والمراجع	١٥٩
فهرس الموضوعات	١٦٤

رقم الإيداع ٩٦/١٣٥٦٦

I.S.B.N. 966-5269-09-1